إصدارات أنصار الإمام المهدي عليه السلام / العدد (١٧٩)

من لسان الاعتباط
إلى اللسان الناطق بالحق

قراءة في تحول الفهم اللغوي

بقلم

زكي الأنصاري

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

لمعرفة المزيد حول دعوة السيد أحمد الحسن عليه السلام

يمكنكم الدخول إلى الموقع التالي:

www.almahdyoon.org

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

تعد المحاولة التي قام بها المفكر اللغوي العراقي عالم سبيط النيلي بنقل الفهم اللغوي من ساحة الاعتباط الضبابية، إلى مثابة القصدية نافعة في إعادة التفكر والتدبر في موضوعة علم اللغة لأنها من أهم الموضوعات الكاشفة عن حقيقة التفكير والعمل حيث يقول النيلي عن مشروعه:

[إن هذا الكتاب هو نظريةٌ جديدةٌ في علم اللغة العام تقوم على مبدأ قصديٍّ يناقض الاعتباط في كل شيء. وغايته تجريد الاعتباطية من سلاحها الفعال في خلق الاختلاف والتناقض اللغوي والفكري وتدمير أداتها في خلق الفئات وتأجيج الفتن وافتعال الحروب الفكرية والفعلية وتفتيت العالم وتخريب القيم واتخاذ الحقائق هزواً ولعباً وإلباس الأمور بعضها ببعض وتضييع الحدود بين ما هو صحيح وما هو خاطئ. والكتاب هو أحد خمسة مشاريع تتحرك سوية لتدمير الاعتباط على كافة المستويات وإظهار حقيقته وكشف زيفه وافترائه. وستأتي هذه المشاريع تباعاً] [1].

إنّ تلك القصدية النيلية تزعم أنّ اللغة نظام قصدي وقصديته كامنة في النظام اللفظي؛ بمعنى أن الحروف المنطوقة والمكتوبة تستبطن معانيها في ذواتها والألفاظ تؤدي معنى معيناً عند ائتلافها وانتظامها في ألفاظ ولا يمكن لها أن تؤدي غيره، وإذا جاز لنا أن نسأل: إذا كانت اللغة نظاماً رمزياً سواءً بتأليف الحروف أو انتظام الكلمات فهذا يعني أن رمزيتها تسقط إذا افترضنا أنّ الحرف (س) هو يؤدي معنى لا يؤديه غيره، وكذلك تسقط رمزية الكلمة (الله) مثلاً إذا كان لها معنى واحداً لا تغادره إلى غيره !! وهذا نقض تغافلته نظرية النيلي القصدية لأن تعرضها له يذهب بمشروعها أدراج الرياح – كما يقال – فهي تأسست لنقض نظرية الاعتباط ونجحت في ذلك، ولكنها وقعت في نفس المطب الذي وقعت فيه الاعتباطية ألا وهو توهم قصدية ذاتية كامنة في الأحرف والألفاظ هي من يدل على المعنى !! وهذا تصور

١- اللغة الموحدة - عالم سبيط: ج١ ص١٥.

يخرج اللغة من ساحتها الرمزية المتشابهة ويجعلها حاكمة وليست محكومة، وواقع اللغة أنها محكومة بدليل أن كل الذي قاله وافترضه النيلي هو افتراض ذاتي قد يشاركه به غيره وحتما سيختلف معه الكثير.

لا شك في أنّ مجرد نقل الفهم اللغوي من ساحة الاعتباط إلى القصدية يعد عملاً محفزاً ومثوراً لملكة الفكر التي حاولت الاعتباطية تدجينها وترويضها في ميدانها الذي ارتأته، ولكن تكييف القصدية بالصورة التي طرحها النيلي رحمه الله أوقع النظرية في مأزق مثل مأزق الاعتباط من حيث لا يريد النيلي، ذاك أنّ النظام اللغوي في ساحة الاعتباط لا يسأل عن ثمرة هذا النظام في هذه الساحة كي لا يعلق في البحث عن جذوره التي سيؤدي البحث عنها إلى الانزلاق أكثر وأكثر في هوة ظلامية لا يستبين الداخل إليها سوى شعوره أنه محبوس في ظلمة لا قرار لها، ولا يفقه غير وجوده الأنوي، ولذلك فالاعتباط لشعوره بهذا المعضل – الذي لا يزيد البحث فيه سوى إيغال بالحيرة، وابتعاد عن سبيل البيان – فضل دعاة هذا النهج إلى التمسك بجملة من المصطلحات الضبابية، واحتالوا على ذلك بأسلوب اللف والدوران من خلال التنويع في طرح القضايا نفسها باستخدام ألفاظ – بزعمهم – مترادفة (أي تؤدي المعنى ذاته).

وهذا في واقعه يعكس فهماً ضبابياً أنتج منهجاً ضبابياً، ولذلك فمنظومة مصطلحات الاعتباط على ضبابيتها فرضت كثابت على اللغويين أن يزنوا به نتائج ما يبحثون، ولذلك نلحظ أنّ البحث اللغوي المستند إلى نهج الاعتباط ينماز بالعرضية وكأن البحوث لا جامع بينها سوى وحدة آليات البحث اللغوي (الاعتباطية) التي تعطي وفرة بالإنتاج وشحة بالنتائج التي لا رابط بينها ولا تثمر عن فهم لعمل نظام اللغة، حتى أنّ ما يلحظ على نتائج تلك البحوث خصوصيتها بالمبحوث حسب ولا علاقة لتلك النتيجة ببحوث أخرى مجاورة أو مشاكلة إلا على سبيل الذكر العرضي التكاثري، وإلا فكل بحث يسبح في فضاء مستقل ولا يستند إلى ما سبقه، وبالمقابل لا يشكل منطلقاً لما سيأتي، فضلاً على أن من يحاول الإفادة من نتائج تلك البحوث سيجد نفسه متورطاً؛ ذاك أنّ النتائج – في غالب الأحيان – هي

ليست أكثر من تصورات الباحث (الاعتباطية) لا ثمرة عملية من ورائها لأنها استندت إلى آليات بحثية لا جامع بينها سوى أنها عاكسة لنهج الاعتباط !!!

د. زكي الأنصاري

الثاني من صفر/١٤٣٢هـ ق

الموافق ٢٠١١/١/٧م

المدخل:

ورد عن (حنان، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر يوم فتح مكة فقال: أيها الناس، إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ألا إنكم من آدم عليه السلام وآدم من طين، ألا إنّ خير عباد الله عبد اتقاه، إنّ العربية ليست باب والد ولكنها لسان ناطق فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه، ألا إن كان دم كان في الجاهلية أو إحنة** – والإحنة الشحناء – **فهي تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة**) [١].

وورد عن (محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني رضي الله عنه، قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن إسحاق الماذراني بالبصرة، قال: حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد، قال: حدثنا غانم بن الحسن السعدي، قال: حدثنا مسلم بن خالد المكي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السلام، قال: **ما أنزل الله تعالى كتاباً ولا وحياً إلا بالعربية فكان يقع في مسامع الأنبياء عليهم السلام بألسنة قومهم، وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية، فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم، وكان أحدنا لا يخاطب رسول الله بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية كل ذلك يترجم جبرئيل عليه السلام عنه تشريفاً من الله عز وجل له**) [٢].

وهذه الرواية الشريفة تبين بوضوح أنّ العربية التي تقع في مسامع الرسول صلى الله عليه وآله هي عربية المعنى لا عربية اللفظ، بدليل قول الرواية: (**فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم**)، ولو كان المقصود هنا بالعربية هو الألفاظ لكان سماعهم ولسانهم واحد ولكن الرواية تبين أنه يقع في مسامعهم بلسانهم مع أنّ قوم الرسول صلى الله عليه وآله من العرب، وهذا يدل دلالة واضحة أنّ العربية المقصودة بل والمعول عليها هي عربية المعنى أي المعنى النقي الواضح البين الذي لا لبس فيه.

١- الكافي: ج٨ ص٢٤٦.
٢- علل الشرائع - للشيخ الصدوق: ج١ ص١٢٦.

قال الصادق عليه السلام: (**أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا، إن الكلمة لتنصرف على وجوه، فلو شاء إنسان لصرف كلامه كيف يشاء ولا يكذب** ...) [١].

وهنا الإمام عليه السلام يبين بصورة لا لبس فيها أن المعول عليه في النظر والفهم والتدبر – التي هي أركان التفقه – هو المعنى، مع الانتباه إلى أن الصرف واقع في اللفظ لا في المعنى، ولعل معنى ذلك أنك تستطيع أن تسوق المعنى الذي تريده على وجوه من الألفاظ كيف تشاء ولا تكون كاذباً في إصابة المعنى الذي تريده، فالمعنى له أكثر من وجه وكل وجه يؤدى بلفظ وربما كان لمعنى واحد وجوه يتوصل لها بألفاظ متعددة تؤدي إليها، لذا فالمعنى: هو صورة العلم الواقع في موضع الفهم وهو المقصود، ولذا فالقصد يدور مدار المعنى لا مدار اللفظ، وبهذا نفهم بأن القصد هو النظر في المعنى لا في اللفظ.

فالألفاظ هي رموز محفزة لملكة التفكير لتشرع في إيجاد جهة فهم لهذا الرمز تجعلها تتقدم نحو المعنى الذي هو سبيل معرفة الحقائق، وهذه الرموز مرة تكون محفزة لملكة التفكير بمفردها، ومرة تكون محفزة لها في سياقها التعبيري الذي تؤديه، وهذا التحفيز هو الذي يجعل ملكة التفكير عاملة متحركة بل دائبة الحركة بين مواضع الفهم من خلال سلوك سبله الموصلة إلى حالة الاستقرار، ولعلنا لو تدبرنا قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾[٢] لوجدنا أنه لا علاقة له بما يقوله جملة من مفسري الرأي بحسب ما ذكر بعضها صاحب الميزان فقال: (وكقول بعضهم: إن المراد بالمستقر الارحام وبالمستودع الاصلاب، وقول بعض آخر: إن المستقر الأرض والمستودع القبر وقول بعض آخر: إن المستقر هو الرحم والمستودع الأرض أو القبر، وقول بعض آخر: إن المستقر هو الروح والمستودع هو البدن ....) [٣]، ورأيه لا يبعد عن رأي أولئك الناظرين في الألفاظ توهماً منهم أنها بذاتها تعينهم على بلوغ المعاني !!

١- كتاب معاني الأخبار - للصدوق: ص٢.
٢- الأنعام: ٩٨.
٣- الميزان في تفسير القرآن - للطباطبائي: ج٧ ص٢٩٩.

إنّ من يتدبر الآية بجملتها يجدها بعيدة تماماً عن هذا المعنى الذي روج له أولئك المفسرون، بدليل أنّ الآية تقول (مستقر) بفتح القاف أي موضع استقرار، فهل في الرحم موضع استقرار، فالاستقرار يعني الإقامة الدائمة والثابتة، فهل هناك عاقل يقول: إنّ في الرحم إقامة دائمة أو هي إقامة إلى أجل مسمى ؟! فحتى على فهمهم هذا لا يكون الرحم سوى مستودع وليس مستقر، لذا فالألفاظ لا طاقة لها في بلوغ المعنى بذاتها لأن بلوغ المعنى ليس وظيفتها إنما وظيفتها أن تدل على لسان البيان، ووظيفة لسان البيان بلوغ المعنى بل وكشف حقائقه كذلك.

ولذا نجد لآل محمد صلى الله عليه وآله بياناً آخر وبيانهم هو الحق، حيث ورد عن (أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت: ﴿**وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾، قال: **ما يقول أهل بلدك الذي أنت فيه** ؟ قلت: يقولون: مستقر في الرحم، ومستودع في الصلب. فقال عليه السلام: **كذبوا، المستقر ما استقر من الإيمان في قلبه فلا ينزع منه أبداً، والمستودع الذي يستودع الإيمان زماناً ثم يُسْلَبَه** ...)[1].

فمعنى أن يكون المستقر والمستودع هو (الإيمان) فهذا لا يدركه إلا من علمه الله سبحانه الأسماء – أي حقائق الأشياء – ومن ثم فمعاني الأشياء لدى من يعلم حقائقها فهو ميسور له، وهذا التعليم الإلهي لا يكون إلا لخلفائه، وبهذا التعليم صاروا راسخين في العلم.

وإذا نظرنا إلى بيان آل محمد صلى الله عليه وآله للآية وتدبرناه جيداً مع الانتباه إلى محفزات ملكة التفكير وهي الرموز الجاذبة للنظر والتأمل لوجدنا أن الآية تبدأ بـ (وهو الذي أنشأكم) والإنشاء من خصائص الخلق وليس هو الخلق بمعناه العام، فالإنشاء لفظ يفهم منه الإيجاد على غير مثال سابق أي (الإبداع) فهو دال على بدء الخلق، ومن أسمائه سبحانه (البديع)، وقوله سبحانه (من نفس واحدة) هنا (من) حرف جر قد يكون دالاً على البيان، وقد يكون دالاً على التبعيض، ودلالته على البيان أي أن الإنشاء كان سببه ودافعه وجود النفس

١- البرهان في تفسير القرآن - للسيد هاشم البحراني: مج٣ ج٧ ص٧٤ ح٤.

الواحدة، ودلالته على التبعيض؛ إن الإنشاء كان من بعضها وليس منها كلها، فهذه النفس – لعلنا نفهم هكذا – هي كل يترشح منه البعض، وكل بتلاحم أبعاضه، فكليته دال على تعلقه بالغني المطلق، وتبعضه دال على تعلقه بفقره الذاتي.

وقوله تعالى (فمستقر ومستودع) يصطلحون على هذه الفاء (فاء التفريع) أي أن ما بعدها تفريع لما قبلها، فيكون ما قبلها أصل لما بعدها، والنفس الواحدة هي الوعاء الأصل الذي تفرع منه (المستقر والمستودع)، فالنفس هي وعاء الإيمان والإيمان هو صورة الفيض الإلهي، وكلا المفردتين هما حضور رمزي دال على معنى، فما المعنى الذي يشير إليه هذا الرمزان (مستقر ومستودع) إذ أن معنى اللفظين مفردين يدل على الثبات والتغير أو التبدل، فمستقر = ثابت، ومستودع = متغير متبدل الموضع، وهنا نسأل: النفس الواحدة بما هي موصوفة ؟! أ بالاستقرار أم بالاستيداع ؟!

العدالة تقتضي أن هذه النفس الواحدة تكون ممتحنة باختيار أحد السبيلين؛ إما أن تكون وعاءً للاستقرار وإما وعاءً للاستيداع، ولعل في قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [١] بيان لمعنى الـ (مستقر والمستودع) فالمستقر الذي ثمرته التقوى هو الإيمان الثابت، والمستودع الذي ثمرته الفجور هو الإيمان المسلوب، والمستقر هو من فعل التزكية، والمستودع هو من فعل الدس، والنفس هي النفس، ولكن هذه النفس الواحدة الممتحنة اختارت المستقر ولذلك وصفت بالواحدة، فهذا الوصف هو صبغة الواحد سبحانه ونعمته أسبغها على النفس، قال تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**﴾[٢] وإنشاء الأنفس من هذه النفس الزكية الواحدة هو لبيان حجة الله سبحانه على خلقه الذي سيختار (المستودع) فسيأتيه الجواب: لماذا اخترت خلاف اختيار النفس الواحدة التي أنشئت منها مع علمك باختيار هذه النفس الواحدة لل (المستقر) ؟؟!!

١- الشمس: ٧ – ١٠.
٢- البقرة: ١٣٨.

من هنا نفهم بأن المستقر والمستودع يدلان إلى معنى واحد وهو موضع الاستقرار والاستيداع من جهة وهو النفس، ومن جهة أخرى يدلان على حال الموضوع في هذا الموضع الذي تكون ثمرته إما التقوى وإما الفجور، فما الموضوع الذي حل بالنفس (الموضع) فجعلها ممتحنة بين جهتين وسبيلين وغايتين ؟؟

لا شك في أن الموضوع بينه الله سبحانه وليس للخلق أن يقترحوا أو يتصوروا موضوعاً بأهوائهم وآرائهم، حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[١]، فقولهم (بلى) هو إقرار وهذا الإقرار في النفس هو بين حالين؛ إما مستقر فتكون ثمرته التقوى، أو مستودع فتكون ثمرته الفجور – والعياذ بالله – وهذا المعنى الذي تبين للرمزين المحفزين لملكة التفكير يؤكده ختام الآية الكريمة (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون).

فالآية الكريمة تؤكد أن هذا التفصيل معني به قوم يفقهون أي يعون ويفهمون ويعملون ملكة تفكيرهم بالاتجاه المرضي عند ربهم سبحانه، ولو أردنا أن يتوضح عندنا رمزي (المستقر والمستودع) لنتدبر قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾[٢]، القول الثابت هو (ألست بربكم) فالامتحان في كل العوالم واحد من الله سبحانه جلت قدرته، وآية الامتحان صرحت أنّ الجميع بلا استثناء قالوا (بلى) وشهد عليهم الملأ الشاهد، فلماذا لما أعيد الامتحان في هذا العالم بالسؤال نفسه افترق الناس إلى طائفتين؛ واحدة قالت (بلى) كقولها هناك، والأخرى خالفت عهدها فقالت (كلا)، هذا الافتراق لبيان أنّ طائفة قالت (بلى) طوعاً، والأخرى قالت (بلى) كرهاً، وفي هذا العالم انماز الخبيث الذي قال (بلى) كرهاً، من الطيب الذي قال (بلى) طوعاً.

١- الأعراف: ١٧٢.
٢- إبراهيم: ٢٧.

يفهم مما تقدم ومن الأمثلة المأخوذة عن آل محمد ﷺ وعمن هم دونهم من مفسري الرأي؛ إنّ مفسري الرأي استندوا في تفسيرهم إلى النظر من نافذة الألفاظ إلى المعاني، وجعلوا المفهوم العرفي من الألفاظ سبيلاً لمعرفة المعاني فابتعدوا وأبعدوا، وضلوا وأضلوا، فالحق سبحانه انزل كتابه لهذا العالم ليكون منهاج عمل وليس ساحة تنظير، ومفسرو الرأي قلبوا المنهج فصيروا القرآن ساحة للتباري بالتنظير واجتراح الآراء، أما آل محمد ﷺ فكشفوا لنا أنّ الألفاظ إنما هي رشحات من المعاني ورموز محفزة على التفكر والتدبر والتذكر ليس إلا، ولذا فعلى من يقرأ القرآن أن يقرأ معانيه ولا يبقى يدور في فلك ألفاظه، ومعاني القرآن آثارها واضحة على حجج الله الراسخين في العلم الذين كلفهم الله سبحانه ببيان كتابه وتعليم هذا البيان للناس.

وهاك انظر هذه الجوهرة المحمدية ليتعرف القارئ بوضوح لا سبيل إلى إنكاره ماذا فعل الاعتباط وتخبط الناس في المعرفة عندما خربوا معادلة الدلالة فتوهموا أنهم متمسكون بها ولكن تمسكهم بها – للأسف – كان بتغييب الدليل (اللسان الناطق بالحق) حيث ورد عن: (نور البراهين عن كميل – لعلي عليه السلام –: يا أمير المؤمنين، ما الحقيقة ؟ فقال: **ما لك والحقيقة؟** فقال: أ ولست صاحب سرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال: **بلى، ولكن أخاف أن يطفح عليك ما يرشح مني**. فقال: أ ومثلك من يخيب سائلاً ؟ فقال: **الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة**. فقال: زدني فيه بياناً يا أمير المؤمنين ! فقال: **نفي الموهوم مع صحة المعلوم**. فقال: زدني فيه بياناً ! فقال: **هتك الستر لغلبة السر**. فقال: زدني فيه بياناً! فقال: **جذب الأحدية لصفة التوحيد**. فقال: زدني فيه بياناً ! فقال: **نور يلمع من صبح الأزل فيظهر على هياكل التوحيد آثاره**. فقال: زدني فيه بياناً ! فقال: **أطف المصباح فقد أضاء المصباح**) [1].

١- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ - محمد الريشهري: ج١٠ ص٨١ – ٨٢.

ماذا فعل النيلي ؟!

لقد تناول الباحث النيلي منهج الاعتباط بالتحليل والنقد الذي وصل إلى حد الاستخفاف بمنظومة المنهج، ومن عمل بآلياته، بل وصل نقده لهم حد الإقذاع معبراً بذلك عن خيبة الأمل الكبيرة بمنهج استهلك الزمن والعقول من دون أن يغادر مكانه حيث أنه ظل يراوح في مكانه، إن لم يكن قد تراجع في البحث اللغوي مراحل كثيرة وكبيرة إلى الوراء، من خلال محاولته استنزاف النصوص وتفريغها من محتواها بدق إسفين بين النص ودلالته !!! ولا فضيلة للاعتباط تذكر سوى فضيلة التكاثر الكمي عرضياً – إذا عدت فضيلة – ولكنه عمودياً جمد إلى حد التحجر عند وهم لا واقع له مفاده؛ أن لا علاقة مثمرة بين اللفظ (الدال) والمعنى (المدلول) ونفي العلاقة يحيل القارئ إلى البحث عنها خارج دائرة الدال والمدلول وسوف لا يرى أمامه غير العرف الذي قيده علماء اللغة في قواميس وادعوا أن تلك القواميس هي لبيان تلك العلاقة بين الدال والمدلول من جهة، ومن جهة أخرى هو ادعاء الحفاظ على اللغة من اللحن والضياع.

إنّ هذين الادعاءين سواء؛ ادعاء تقييد العلاقة أو الحفظ هو ادعاء فارغ ولا حكمة من ورائه سوى حبس ملكة الفكر في دائرة الماضي بكل عوالقها، ولذلك ظهرت صيحات كثيرة تعلن أن العربية هي لغة ميتة ولم تعد صالحة لهذا الزمان أو لما يستقبل من الزمان، وهذا الرأي فيه شيء من الصواب لمن توهم أن اللغة هي تلك التي في القواميس اللغوية التي تم استقراؤها استقراء ناقصاً في القرن الأول الهجري ولكن هذا الرأي جوبه بما هو كائن أن هذه اللغة مازالت حية إلى اليوم ولم تمت وادعاء موتها إنما هو مؤامرة عليها !!

وربما في ادعاء المؤامرة شيء من الصحة ولكن المؤامرة ليست على اللغة التي في القواميس، ولكن على اللغة التي في القرآن، والمؤامرة على اللغة هي في الواقع موجهة إلى القرآن، وكذلك الذين ألفوا القواميس ادعوا أن ما دفعهم إلى استقراء اللغة هو الحفاظ على لغة القرآن، ولذلك كانت تلك المؤامرة في واقعها رد فعل على ما فعله من حبس لسان العربية في قواميس وصير هذا المشروع ميزاناً يوزن به لسان الناطقين بالعربية وتلك المحاولة شكلت قيداً مقيتاً

أعطت مبرراً لمهاجمة العربية وعدها لغة قواميس ولا علاقة لها بالحياة الحاضرة فضلا على قدرتها في التعاطي مع المستقبل.

ولعل هذا الرأي لمن ينتبه إنما هو رد فعل على من حبس لسان العربية في القواميس وادعى أن هذه القواميس وأقوال العلماء هو من حفظ لسان العربية من الضياع وبذلك تم حفظ لغة القرآن، مع أن صريح القرآن يكشف عن حقيقة؛ إنّ حفظ القرآن مناط باللسان الناطق به في كل زمان، ولكن الأمة لما أعرضت عن اللسان الناطق بالقرآن بعد رحيل رسول الله ﷺ راحت تبحث عن بدائل ودخلت في ساحة الاعتباط عملياً، والاعتباط هو نهج العمل بموازين الأنا ولذلك ترى الموازين مختلفة ومتعددة، بينما الأمة لو لزمت اللسان العربي المبين الذي نصبه الله سبحانه قائماً بحفظ كتابه وشريعته وعاملاً بها، لوجدت أنها في غنى عن كل هذا العمل الذي لم يكن له نظام ينتظمه سوى سلطوية آراء من اصطلح عليهم (علماء العربية) وما كتبوا وما ألفوا !!

ولا أحد يدري هذه السلطة من أين لهم، ومن أعطاها لهم مع أن الحكمة تقول أن من أنزل كتاباً لابد أن يعين لهذا الكتاب ناطقاً به يبينه للناس ويكون حافظاً له وعاملاً به، وهذا ما بينه الله سبحانه في محكم كتابه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

وأما عامة الناس فهم متبعون لذلك الناطق، ولذلك لما لم تمتثل الأمة إلى وصية النبي ﷺ للقائمين بعده بحفظ الشريعة والعمل بها آل حالها إلى ما نراه اليوم حيث كل من رفع عقيرته ونادى لحقه جمع من الناس بآرائهم وأهوائهم من دون دليل إلهي أو حجة إلهية يحتجون بها!!

١- النحل: ٤٣ – ٤٤.
٢- النحل: ٦٤.

ومن هنا دخلت الأمة في ساحة الاعتباط في كل تفاصيل حياتها حالها في ذلك حال كل الأمم التي دخلت تلك الساحة وراحت تعمل بها من دون أن تتدبر بحال الماضين أو اتهام من يتهمهم من أعدائهم في الحاضر، فالمسلمون اليوم عاجزون تماما عن العمل بالقرآن وهو بين أيديهم وهم لا ينتفعون به وهو غريب بينهم تماما كما قال الله سبحانه وبين شكوى الرسول صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[1]، ولذلك ركز جهده في النظر إلى الدال (اللفظ) وبحثه من عديد جوانبه وجهاته، متجاهلاً تماماً المدلول (المعنى) بل عمل على تهميش أثره في النظام اللغوي، بل في حالات كثيرة جعل أثره لا علاقة له بنظام اللغة، وربما هو دخيل عليها !!!

مع العلم أنّ المعرفة لا تكون نافعة ولا مثمرة ما لم تكن معرفة تتنامى عمودياً وصولاً إلى غاية وجود ذلك النظام، ومن ثم العمل على استعماله بما يعود على مستعمله بالنفع والفائدة المعرفية (الحقة). إن كل منهج يبدأ استنادا إلى محور عمودي جامد (سكوني) وعرضي متكاثر هو منهج لا ينتظر منه أن ينتج معرفة تؤدي إلى غاية ما، بل كل ما ينتجه هو نتاج كمي لا نوعي، فضلاً على أن نهج الاعتباط كشف عن مراوغة الفكر البشري ومحاولته القفز على الثوابت التي هي ميزان العمل والحركة من خلال قطع الصلة بين ظاهر النظام؛ الألفاظ والرموز الصوتية وبين النظام المغيب؛ المعنى الذي أعطى سمة الظهور للرموز الصوتية والألفاظ وهو الذي يشكلها بالصورة القادرة على الدلالة عليه.

كذلك عمل الاعتباط على قصر النظر إلى ظاهر النظام دون ماهيته لتجعل ماهيته محكومة بذات الباحث، وهذا يكشف بوضوح على أن الذات الإنسانية تأنف أن تكون محكومة ، وتشرأب بأعناق شخوصها إلى وهم مفاده أن الإنسان (عموماً لا خصوصاً) بذاته هو البداية وهو الغاية، ولاشك في أن هذا الوهم لا يصمد أمام حقيقة أن البداية والغاية هي كلمة الخالق (النور الأول) الذي به كان المخلوق الأول الموصوف بالنور، وليس عموم المخلوقين، البداية؛ هي من الذي (ليس كمثله شيء) وهي الغاية، أما من مائزه الشيئية التي تحد وتعد فهو ليس سوى ممتحن بالاختيار في سلوك أيَّ نهج من النهجين؛ نهج يستند إلى

١- الفرقان: ٣٠.

الاعتباط النابع من الذات البشرية؛ أي أن الأشياء تأخذ هويتها من الناس وهم من يعطيها أسماءها هكذا من دون أن يكون لذلك العطاء ما يبرره، وهذا الفهم سيكون صحيحاً فيما لو كان حقيقة الأمر هكذا؛ أي أن الناس هم من يعطي الأشياء أسماءها، أما والحال غير ذلك تماماً، فهذا الفهم ما هو إلا وهم توهمه الناس، ونهج يستند إلى النص الإلهي الذي أخبر أن الإنسان قد عُلِّمَ الأسماء، فهو مُعَلَّمٌ.

لذا لابد من وجود النهج الآخر على الساحة لتكون مهمته كشف زيف ذلك الوهم الذي تأسس عليه النهج الأول، وإلى هذا ألفت الباحث النيلي: إن من يعطي الأشياء أسماءها هو الغيب الذي خلقها، وبما أن الرموز الصوتية والألفاظ لها سمة الشيئية المحدودة والمعدودة فهي تستبطن قيمتها ونظامها فيها، وعمل الإنسان معها يستند إلى جده واجتهاده في اكتشاف ذلك النظام وطريقة عمله، ولذلك كان بحث الأستاذ النيلي مستنداً إلى النظر في الرموز، والألفاظ، وحاول بذل جهد لا يمكن غمطه في تقويض نهج الاعتباط من أساسه، ولكن جهده في التأسيس لنهج (القصدية) أدخله في الضبابية مرة أخرى، وإن كانت أخف من الأولى، ولكنها أيضاً تستند إلى فهم الذات الإنسانية بالعموم من خلال إعادة الحياة للعلاقة بين الدال (اللفظ) والمدلول (المعنى)، وجعل الآصرة الرابطة بين قوسي اللغة؛ الدال والمدلول، الـ (أنا) الجمعي للإنسان الباحث وقدرتها على تخصيص شيئية ما إلى رمز صوتي معين، ومحاولة جعل فوارق بين رمز ورمز تعطي لكل منهما استقلاليته الشيئية؛ أي أن النيلي يفترض أن لكل صوت قيمة تخصه وتحده، وهذه القيمة كامنة فيه ويمكن معرفتها من خلال محاولة استنطاقها من الباحث فيها.

وهذا الافتراض لاشك في أنه أعاد الاعتبار للنص بوصفه منظومة من الرموز لها قيمة مؤثرة، وهذا تماماً ما حاول الاعتباط نسفه عندما افترض أن هناك منطقة فراغ بين الدال والمدلول يملؤها الناطق (عموماً) لا (خصوصاً) بما يشاء، بينما الأستاذ النيلي جعل مسؤولية ملأ هذه المنطقة منوطة بما تحمله الرموز الصوتية من قيم ذاتية قادرة على رسم السبيل إلى المعنى والعمل على توجيه (قصد) الفكر بذاك الاتجاه الذي رسمته القيم الكامنة في الرمز اللغوي.

ولعل عمل الأستاذ النيلي هنا واضح فيه ردة الفعل على الاعتباط، فالاعتباط فرغ الرموز اللغوية من أي قيمة وجعلها كأنها موجودات هي من اختراع الناس الناطقين بها ولذا فهم من يعطيها تلك القيمة، فجاء الأستاذ النيلي ليجتهد بالعمل في إعادة الحياة للرموز اللغوية عندما اجتهد في إثبات ما تحمل من قيم كامنة فيها تمكنها من رسم سبيل متجه إلى معنى بعينه دون غيره، وهنا علينا أن ننتبه أن عمل المنهجين واقع في حدي التفريط والإفراط، فالاعتباط فرط فيما يكمن في الرموز الصوتية من قيم محفزة لملكة الفكر للعمل على التوجه إلى معنى ما، وقصدية النيلي أفرطت في جعل ما يكمن من قيم في الرموز هو المسؤول عن تحديد المعنى وبيانه، وهذا التصور غير صحيح أيضاً.

ولذا علينا أن ننتبه إلى المنطقة الوسط التي غادرها الاعتباط بتوهمه أن لا قيمة كامنة في الرموز اللغوية، وكذلك غادرتها قصدية النيلي بافتراض أن ما تحمله الرموز من قيم كامنة قادر على توجيه الفكر نحو معنى بعينه لا غير !! وواقع الأمر أن القيم التي تكمن في الرموز اللغوية تشكل محفزاً لملكة التفكير إلى العمل والبحث، ولكن إحكام هذه القيم وبيانها وبيان معانيها منوط بموجدها الحق سبحانه، وجعل سبحانه على هذا الأمر من يخلفه من عباده ويتكلف مسؤولية البيان، حيث يبقى اللفظ حياً كونه رمزاً يشير إلى معنى ولكن يبقى هذا المعنى خفيا مستترا حتى يبنه خليفة الله المكلف ببيانه وليس أحد سواه.

ربما يعضد الواقع ما ذهب إليه الاعتباط – ظاهراً – من خلال شكل العلاقات المنعقدة بين الرموز الصوتية، فالبشرية كلها تمتلك المشاعر نفسها كالمحبة والكره والغضب، وما إلى ذلك من المشاعر والقيم التي يستشعر بها الإنسان إنسانيته، ولكنها تفترق في التعبير عن تلك المشاعر، وطريقة التعبير عنها من خلال نظم العلاقة بين الرموز الصوتية، وهذا الحال مرده لا إلى حقيقة العلاقة بين الرمز الصوتي وقيمته، بل مرده إلى علاقة (أنا) الإنسان بالرمز الصوتي وطريقة تعاملها معه، وإسباغها عليه القيمة التي تتصورها، متجاهلة تماماً القيمة الكامنة في الرمز ذاته، ولعل هذا الفهم والتفسير يقدم توضيحا وبيانا لاختلاف الألسن، على الرغم من أنها واقعاً تعود إلى صورة لسانية واحدة. وهذا الفهم يسنده الواقع المعاش بين الناس، وتسنده الرسالة الخاتمة التي امتحن الله سبحانه الناس بها، ذاك أن الرسالة الخاتمة نازلة بلسان ناطق،

وهذا اللسان أرسله الله سبحانه رحمة للعالمين، بمعنى أن الناس كلهم، بل العالمون كلهم قادرون على التعاطي مع الرسالة بحسب هوية اللسان النازلة به؛ أي أن البشرية بالخصوص يجمعها لسان واحد كاشف عن القيمة الحق للرموز الصوتية، وحقيقة العلاقة بين الرمز ودلالته.

لقد كان لجهد النيلي ثمرة نافعة مفادها أنه استند فيما وصل إليه من تصور استقاه من فهمه لضرورة وجود ممثل عن الغيب المطلق على الأرض يمثله ويحكم بأمره، وهذا الفهم بمجمله صحيحاً، ولكن ما ينقصه أن النيلي صرف اهتمامه إلى النص إلى الحالة التي تغافل بها تماماً عن هوية الناطق به، بمعنى أن الباحث النيلي بتصديه لنهج الاعتباط تقدم خطوة بالاتجاه الصحيح ألا وهي؛ إعادة الاعتبار إلى النص بوصفه حاكماً، وهذا أمر غاية في الأهمية، إلا إن توقف الباحث عند النص حسب جعله ينفرط عن نهجه بتصوره أن (أناه) الباحثة يمكن لها أن تجعل النظام اللغوي يعود إلى المأمول منه في واقع الحياة، من خلال جعل الشيئية قيمة مستبطنة في الرموز ولا تحتاج سوى جهد ونظر ثاقب يستطيع أن يجمع شتاتها المتوزعة بين ما اصطلح عليه الاعتباط بـ (الترادف)، وإعطائها سماتها الشيئية المجعولة لها.

وهذا العمل ربما يكون فيه شيء من الصحة، إلا أنه وقع في الضبابية مرة أخرى لأن العامل القائم به ليس مكلفاً به، بمعنى أن الباحث النيلي تكلف ما ليس له فوقع في التقصير نتيجة قصوره، وليس نتيجة تعمده التقصير مثلما هو فعل دعاة الاعتباط الذين جعلوا من جهلهم بحقائق الشيئية حجة، وراحوا يقطعونها عن مسمياتها ثم قاموا بعد أن نجحوا في عملية الفصل إلى توزيعها على ما يرون ويتوهمون أنه لها، ولذلك وقعوا في مأزق إعطاء الشيء الواحد مسميات عديدة من دون أن يكون لذلك العطاء قانون ينظمه، أو تبرير يجعله مقبولاً!!!

إن ما قام به الباحث النيلي هو إعادة البحث إلى نقطة البداية الصحيحة، وهي؛ لابد لكل شيء اسم خاص به جعله ظاهرا بذلك الاسم، وجعل المسمى موجوداً به، ولكن ما قصر عنه النيلي هو: من المكلف بالكشف عن أسماء الأشياء على طول الزمان وعرض

المكان وتعاقب الإنسان ؟؟!! ربما أشار النيلي إلى ذلك إشارات ولكنه لم يجعل التركيز على تلك الإشارات بوصفها هي من يملك الحق في جعل الأسماء تنطبق على أشيائها، والأشياء تنبئ عن أسمائها، بل ابتعد عن ذلك عندما باشر البحث في التفصيل ليصل إلى فهم مفاده أن اللغة نظام قانوني محكم يستبطن قيمه التي تعطيه استحقاق الشيئية بذاته، بمعنى أن رمز الألف (ا) أو الباء (ب) هو رمز يستبطن قيمته التعبيرية في ذاته وهو قادر على التعبير عن شيئيته بذاته !!

وهذا الفهم يستلزم منا أن نصدق كل ما يقول النيلي لأنه هو من يقول ذلك، وليس رمز الباء أو الألف، ولذلك علينا كي نستمر على هذه القصدية التي طرحها النيلي والإفادة منها أن يبقى النيلي موجوداً كي نعود إليه كلما جهلنا شيئية أحد الرموز أو اختلطت علينا شيئيته بغيره مجاوراً له، فما غاب عن النيلي أن المجاورة بين الرموز يجعلها تتداخل في الشيئية وربما تتماهى إلى الدرجة التي لا يعد للرمز شيئية إلا بمن يجاوره، فهل يمتلك الباحث النيلي القدرة على وضع آلية قانونية نعيد فيها الاستقلالية للرمز فيما لو حصل ذلك ؟!

الجواب لدى النيلي بما أسفر عنه منهجه؛ أن تلك الآلية القانونية مستبطنة في الرمز ذاته، وهذا الجواب يبقى محل نظر، ولا يقدم معرفة، بل يعيدنا إلى الضبابية مرة أخرى أي سيبقى الأمر في اكتشاف تلك الآلية القانونية المزعومة مناطاً بشخص الباحث ولعل هذا يشير من طرف خفي إلى حقيقة أن الآلية القانونية هي لا تكمن في الرمز ذاته، بل تكمن في اللسان الناطق، وهنا يتبادر لنا السؤال الآتي: أي لسان ناطق ؟! هل هو عموم اللسان الناطق لنعود مرة أخرى إلى الضبابية ؟؟؟ أو هو لسان ناطق بعينه مسمى ومنصب ومعين ممثلا عن الغيب الخالق للأشياء وأسمائها ؟؟؟!!!

* * *

خلل القصدية:

إن من يتابع مشروع الأستاذ النيلي وعلى ماذا بناه يتبين له أن النيلي ليس في صدد إيجاد حل لمعضل حصدت من جرائه البشرية هذا الثمن الباهظ من القتل والتدمير، والعمل على طمس الغاية من الوجود، وهي معرفة الخالق سبحانه، على الرغم من أن محاولة الأستاذ النيلي غايتها هي تلك إلا أن إجراءاته العملية، وما صرح به في النص الذي نقلناه عنه آنفاً تكشف أن هدفه هو تقويض منهج الاعتباط، وربما لو أنه قصر عمله على هدفه هذا لكان مصيباً ومبدعاً، فلا أحد ينكر عليه الجهد الكبير في تقويض مباني الاعتباطيين ونقضها بالدليل والبرهان.

ولكن الأستاذ النيلي كلف نفسه عسيراً ومضى خارج هدفه بعد أن حققه بنجاح في نقض الاعتباط وهدم مرتكزاته، وبيان هشاشة أسسه التي ابتنى عليها منهجه، راح هو يتكلف وضع منهج برأيه لا يستند إلى دليل أو برهان محكم واضح قاطع، بل استند إلى ما توهمه دليلاً عندما اكتشف أن الرموز اللغوية تستبطن قيماً، هذه القيم تجعل بينها تمايز يفرق بينها، ولكن هذه القيم وهذا التمايز بينها نفى الترادف وقوضه؛ صحيح، ولكن هذا التمايز بذاته غير قادر على توجيه الرمز باتجاه معنى محدد بعينه.

إنّ افتراض الأستاذ النيلي أن القيمة الكامنة بالرمز اللغوي قادرة على الكشف عن معناه من دون الحاجة إلى شيء آخر يكشف عن العلاقة بين الرمز ومعناه، إنما هو افتراض يعيدنا إلى المربع الأول الذي عمل على نقضه النيلي فالاعتباطيون صحيح أنهم جردوا الرمز من قيمته الخاصة به ولكنهم لم يفرغوه تماماً وإنما هم افترضوا له قيمة من عند أنفسهم، وهذه القيمة متغيرة متبدلة وليست ثابتة، وعدم ثبوتها دال على عدم تمايزها وإنما تمايزها حاصل من تمايز المتكلمين بها، أما الأستاذ النيلي فاكتشف أن لكل رمز لغوي قيمته الخاصة به التي تحفظ له تمايزه عن غيره من الرموز وهذه القيمة كامنة في الرمز وليس مفروضة عليه، وبهذا نقض النيلي على الاعتباطيين توهمهم.

ولكن الأستاذ النيلي وقع في نفس المطب الذي وقع فيه الاعتباطيون وهو جعل ذاته الباحثة موجهة لتلك القيم الكامنة في الرموز إلى معان بغيرها، فراح هو يقوِّل القيمة، فقيمة الرمز بذاتها صامتة وليست ناطقة، وهذا صحيح، وإلى هذا الحد كان فهم الأستاذ النيلي سليماً، ولكنه انحرف عن جادة الصواب عندما جعل نفسه اللسان الناطق بقيمة الرمز اللغوي، وكونه هو الناطق بقيمة الرمز يحتاج إلى دليل، ودون ذلك خرط القتاد، فالنيلي لم يكلف هذا الأمر حتى يشرع في تأسيس نظريته (اللغة الموحدة) ولا أدري كيف لم ينتبه الأستاذ النيلي إلى أن الله سبحانه أثبت اختلاف الألسن وأمر هذه الألسن المختلفة للرجوع إلى اللسان الموحد وهو لسان خليفته في كل زمان، فاللغة مختلفة ولا توجد لغة موحدة، ولكن ما يوحد هذه الألسن المختلفة هو اجتماعهم على لسان خليفة الله في كل زمان، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[١].

لذا فإن خلل النظرية القصدية يكمن في أصلها حيث ابتنى النيلي فهمه للقصدية أنها تكمن باللغة بوصفها نظاماً رمزياً قيمه مستبطنة فيه، وهذا غريب وكأنه لم يلتفت إلى قول أمير المؤمنين عليه السلام في رده على رفع جند الشام للمصاحف: (**هذا كتاب الله الصامت، وأنا المعبر عنه، فخذوا بكتاب الله الناطق، وذروا الحكم بكتاب الله الصامت؛ إذ لا معبر عنه غيري**) [٢]، ومن قول أمير المؤمنين عليه السلام يستبين معنى القصدية الحق، فالقصدية الحق هي تكمن في لسان خليفة الله حسب، ذلك الإنسان الخاص المنصب من الله سبحانه، والممثل لله سبحانه في خلقه وهو خليفته ومبعوثه إليهم معلما لهم ومبيناً لتلك العلاقة الرابطة بين الدال والمدلول.

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٣]، فمعاني الكلم لا يعرفها إلا الله سبحانه ومن علمه الله سبحانه، وهم أهل القرآن وعدله.

١- الروم: ٢٢.
٢- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ - محمد الريشهري: ج٨ ص٢٠٧.
٣- الرحمن: ١ – ٤.

تحليل المنظومة اللغوية:

عند تحليل المنظومة اللغوية نلحظها تتألف من أربع دوائر متماهية؛ حيث روي عن علي عليه السلام أنه قال: (**إنّ كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة والإشارة واللطائف والحقايق. فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقايق للأنبياء**) [١].

١. دائرة اللفظ – أو بحسب اصطلاح أمير المؤمنين عليه السلام العبارة – وهي الدائرة الصغرى التي تعمل على اللفظ (العبارة) بوصفه منتجاً صوتياً مسموعاً، ومكتوباً مرئياً، وهذا اللفظ (العبارة) هو رمز وهو محمول الدلالة وليس له القدرة على أن ينقل المعنى، بل بوصفه رمزاً فهو معبر عن اللسان الناطق به، ذلك أن المعنى هو جهة الفيض وسبيله وهو وجود جوهري لا يمكن للرمز المادي (اللغوي) أو العبارة أن يكون وعاءه إلا بالواسطة، وتلك الواسطة هي الدائرة الثانية. لذا فالدائرة الأولى يعرفها عامة الناس ويمكن تسميتها بـ (دائرة القول) بوصفه ملفوظاً. قال تعالى: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[٢].

٢. ودائرة اللسان، وهي الدائرة الثانية وهي دائرة الإشارة التي تعمل على اللسان بوصفه وعاء المعنى وسبيله، الذي منه يستحيل المعنى إلى صورة رمزية؛ منطوقة مسموعة، أو مكتوبة منظورة، واللسان لسانان استناداً إلى جهة الفيض (المعنى) لسان ناطق بالحكمة وهو اللسان الحجة، وهو اللسان (العربي) الذي قال فيه جل وعلا: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾[٣].

فالقرآن كما هو معروف كلمة الله سبحانه بوصفها جوهر تجريدي (حدث) ليست اسماً ولا وصفاً ولا فعلاً، ولكنها لما كانت تنزيلاً فهي نزلت على مراتب، فمن مقام التجرد (الحدثي) إلى مقام الإسمية؛ وهو مقام ارتفاعها وظهورها من عالم التجريد الغيبي الخفي إلى عالم الشهود والظهور المتجلي بالاسم، وفي هذا المقام كان خلق الإنسان، ومن ثم إلى مقام الوصفية؛ وهو مقام الصورة المنطبعة على مرآة الوجود وهي صورة عاكسة لوجه من وجوه

١- عوالي اللآلي - ابن أبي جمهور الأحسائي: ج٤ ص١٠٥.
٢- ق: ١٨.
٣- الشعراء: ١٩٣ – ١٩٥.

الشهود والظهور والتجلي، وفي هذا المقام خلق الزمان إلى جنب الإنسان (الذات)، ومنه إلى مقام الفعلية؛ وفي هذا المقام تستحيل الصورة إلى وجود مادي يتحرك في الواقع ويترك أثراً، وفي هذا المقام تتجسد الصورة فتكون مكاناً إلى جنب الزمان والإنسان، ولذلك فوجود الإنسان النوري لم يشكل تاريخاً له؛ لأن وجوده النوري كان مجرداً من الزمن، ولكنه في مقام الخلق الثاني صار له تاريخاً لأن خلقه لازم خلق الزمن، فكانت له نشأة أولى تعرض فيها للاختبار الذي كشف عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[1]، وهذا العالم سماه الحق سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

واللسان الآخر هو لسان الناس وهو متفاوت وليس بحجة، وهو اللسان الأعجمي الذي لا يعربه سوى المعنى العرفي، بمعنى أن الرموز اللغوية لها معان تعارف عليها الناس وليس لأحد القدرة على الخروج عليها إلا إذا نجح في كشف علقة بين المعنى العرفي والمعنى المستحدث من خلال إبراز ارتباطات موحية بإشارة المعنى المعروف إلى ذلك المستحدث، وهذا اللون من المعاني تجلت في النصوص الأدبية وخاصة الشعر.

ودائرة اللسان هي دائرة عمل الدلالة (الإشارة) فكل لسان ناطق هو في واقعه دليل على ما يقول، ويشير إلى ما يعني، ولذلك فالدلالة لا علاقة لها بالنص بما هو نص، بل تكون العلاقة متى ما نطق النص، وإذا لم ينطق، وبقي صورة كتابية أو صوتية فلا علاقة له بالدلالة، بدليل ما أثبته أمير المؤمنين عليه السلام عندما دعا معاوية جنده في معركة صفين إلى رفع المصاحف بإشارة من ابن العاص كي يتجنبوا هزيمة منكرة، وما إن رفع الناس المصاحف ودب الخلاف في جيش علي عليه السلام بين من دعا إلى مواصلة القتال وأعلن أن هذه خدعة لعلمه أن من أمره بالقتال هو الوحيد الذي يأمره بالتوقف وليس أحد غيره، وآخرين انطلت عليهم الحيلة فتوقفوا عن القتال بداعي احترام القرآن (النص)، فجاء الناس القول الفصل من اللسان

١- الأعراف: ١٧٢.
٢- الواقعة: ٢٦.

الحجة؛ (**هذا كتاب الله الصامت، وأنا المعبر عنه، فخذوا بكتاب الله الناطق، وذروا الحكم بكتاب الله الصامت؛ إذ لا معبر عنه غيري**) [١]، بمعنى أنا الدليل وليس النص الصامت، ذلك لأن النص إذا كان صامتاً كان متشابهاً بمعنى أنه ساحة تيه لا تشير إلى شيء ما لم يتوفر الدليل وهو اللسان الناطق الذي له القدرة على الإشارة إلى سبيل النجاة.

لذا فاللسان لسانان؛ لسان ناطق بتنصيب الحق سبحانه وهو لسان الحكمة وهو دليل قطعي اليقين، ولسان ناطق بداعي الهوى، وهو لسان سفه، وهو دليل ظني، في غالب الأحيان يكون ما يصدر عنه لا يفيد علماً ولا عملاً، والغريب أن ما نلحظه على الدراسات في الدلالة اليوم تتجاوز دائرة اللسان وتتغافل عنها لتذهب إلى مباشرة النصوص مباشرة دلالية استناداً – بحسب ما يزعمون – إلى ما يفصح النص عن نفسه من خلال استنطاقه بعدد من الإجراءات التي اصطلحوا عليها بـ (الدلالية)، وهي في واقعها إجراءات عملها لساني وليس نصي، بمعنى أن من يدل على معنى النص ويشير إليه هو لسان الدارس أو الباحث، وإن كان من خلال توسله لتلك الإجراءات، غير أن العمل الواقعي هو للسانه الناطق، ولكنه توارى خلف تلك الإجراءات محملاً إياها مسؤولية الدلالة، وهي منها براء. ولذلك فهذه الدائرة دائرة خواص.

٣. دائرة المعنى، وهي الدائرة الثالثة وتسمى دائرة (اللطائف) حيث تعمل على معرفة جهة الفيض والتوجه إليها، وهذه المعرفة هي؛ وجود تصوري يعبر عن نفسه من خلال آلة الفكر التي هي وعاء للفيض، وهذا الوعاء إما أنه يغترف من عالم الظلمة فيكون محتواه ظنوناً، أو يغترف من عالم النور فيكون محتواه حكمة وعلماً، واللسان الحجة والدليل القطعي لا يغترف إلا من النور ولذلك لا يصدر منه غير الحكمة، أما من دونه فهو يغترف من هذا وذاك ويتناسب الاغتراف بتناسب توجهه فإن كان توجهه إلى عالم النور نسبته أكثر يكون علمه وعمله قريباً من الحكمة، وإن كان العكس فيكون علمه وعمله قريباً من الجهل.

١- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ - محمد الريشهري: ج٨ ص٢٠٧.

فالمعنى هو جهة الفيض وسبيله الذي منه يتلقى الفكر البشري الفيض ليترجمه اللسان بواسطة منظومة من الرموز إلى لغة منطوقة ومكتوبة، وتلك الجهة تدعونا إلى البحث عن مصدر الفيض ونبعه، ونبع الفيض هو (العني) ولهذا العني ظل، وبما أن اللغة مرتبطة بالإنسان فهي صادرة منه عائدة إليه فهو مبتداها وغايتها، فالعني المصدر أي منبع الفيض هو إنسان نوراني مشوب بظلمة، الأنا فيه بمقدار ما يحفظ له وجود الشخصية مبرَّءاً من الإحساس بها أو الالتفات إليها، ومنه ينتقل إلى الحجاب وهو السبيل؛ ظل العني، أو المعنى وهو إنسان آله الشعور بالأنا والالتفات إليها، وهذا الألم بقبال رب الفيض وباعثه، أما وجوده فهو ضرورة وباب رحمة لمن دونه من الخلق ولولاه لما كان للمعنى وجود، وانعدام المعنى يعني انعدام السبيل إلى العني، ومن ثم استحالة أن يكون هناك خلق أو وجود، والمعنى أجراه صاحبه على لسان عربي مبين، ولذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (**أعربوا حديثنا فإنا قوم فصحاء**)[1]، وأعربوا أي؛ افهموا، وافقهوا، وهذه الدائرة خاصة بالأولياء، ولذلك نلحظهم صلوات الله عليهم يطالبوننا بالإعراب لكي لا نعدم وسيلة مقاربتهم والإفادة من (لطائفهم) عليهم السلام.

٤. والدائرة الرابعة تسمى دائرة الحقائق، وهذه الدائرة هي دائرة الكلمة (الذات)، وهذه الدائرة دائرة نورية كاشفة عن التوحيد الحق على مستوى الكلمة بوصفها البدء الأول الذي عرَّف به مالك الوجود نفسه لمخلوقيه، وهي الدائرة التي عرَّف بها الخالق سبحانه نفسه لخلقه قائلاً بلسان المتكلم: (إني أنا الله ...)، وبلسان الغائب: (هو الله ...)، وتسمى هذه الدائرة بدائرة الحقائق التي لا يحيط بها إلا الأنبياء عليهم السلام ومن هو في مقامهم وهم الأئمة عليهم السلام، فهم من يباشر الكلمة بحقيقتها ويُنبأ بها، ومنهم تكتسب الكلمة سمة اللطافة فيباشرها الأولياء عليهم السلام على أنها لطف إلهي عرفهم به سبحانه، وعرفوا به، وبهم عليهم السلام صارت الكلمة إشارة يفقهها من لطف حسه وصفا ذهنه من المتفقهين وهم لاشك في أنهم خواص الناس لا عامتهم، وتلك الإشارة يترجمها الخواص كي تكون عبارة (قول) يستطيع عامة الناس تناقله ونشره والتعاطي به.

١- وسائل الشيعة: الباب ٨ ح٢٥.

ومن خلال تبين هذه الدوائر الأربعة يتوضح لنا بناء النظام اللغوي، وأهمية الكلمة بوصفها الوسيلة التي فتقت الخفاء وأعطته صفة الظهور، وفتقت العدم ووهبته صفة إمكان الوجود، ولذا وصف ما وهب العدم صفة الوجود بـ (الفطرة) لأن الفطر هو فتق وشق وبيان، وفطر العدم هو بإفاضة صفة الوجود عليه، وفتق الوجود هو بتجليه في عالم المعرفة ظهوراً معبراً عن الكنز المخفي، حيث ورد في الحديث القدسي قوله سبحانه: (**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأن أعرف**) [١].

ولعل في هذه الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام تعريف للكلمة في مراتب تنزلها حيث ورد (عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: **قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أحد واحد تفرد في وحدانيته، ثم تكلم بكلمة فصارت نوراً، ثم خلق من ذلك النور محمداً صلى الله عليه وآله وخلقني وذريتي، ثم تكلم بكلمة فصارت روحاً فأسكنه الله في ذلك النور واسكنه في أبداننا، فنحن روح الله وكلماته، فبنا احتج على خلقه فما زلنا في ظلة خضراء حيث لا شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار ولا عين تطرف نعبده ونقدسه ونسبحه وذلك قبل أن يخلق الخلق.**

وأخذ ميثاق الأنبياء بالإيمان والنصرة لنا، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [٢] **يعني لتؤمنن بمحمد ولتنصرن وصيه، وسينصرونه جميعاً وإنّ الله أخذ ميثاقي مع ميثاق محمد صلى الله عليه وآله بالنصرة بعضنا لبعض، فقد نصرت محمداً صلى الله عليه وآله وجاهدت بين يديه وقتلت عدوه ووفيت لله بما أخذ عليّ من الميثاق والعهد والنصرة لمحمد صلى الله عليه وآله، ولم ينصرني أحد من أنبياء الله ورسله وذلك لما قبضهم الله إليه وسوف ينصرونني ويكون لي ما بين مشرقها إلى مغربها وليبعثنهم الله أحياء من آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله كل نبي مرسل يضربون بين يدي بالسيف هام الأموات والأحياء والثقلين جميعاً، فيا عجباه وكيف لا ؟؟**

١- رسائل الكركي - المحقق الكركي: ج٣ ص١٥٩.
٢- آل عمران: ٨١.

أموات يبعثهم الله أحياء يلبون زمرة زمرة بالتلبية لبيك لبيك يا داعي الله، قد أطلوا بسكك الكوفة، قد شهروا سيوفهم على عواتقهم ليضربون بها هام الكفرة وجبابرتهم واتباعهم من جبابرة الأولين والآخرين حتى ينجز الله ما وعدهم في قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[1]، أي يعبدونني آمنين لا يخافون أحداً في عبادي ليس عندهم تقية، وإنّ لي الكرة بعد الكرة والرجعة بعد الرجعة وأنا صاحب الرجعات والكرات وصاحب الصولات والنقمات والدولات العجيبات، وأنا قرن من حديد، وأنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا أمين الله وخازنه وعيبة سره وحجابه ووجهه وصراطه وميزانه، وأنا الحاشر إلى الله، وأنا كلمة الله التي يجمع بها المفترق ويفرق بها المجتمع.

وأنا أسماء الله الحسنى وأمثاله العليا وآياته الكبرى، وأنا صاحب الجنة والنار اسكن أهل الجنة الجنة واسكن أهل النار النار وإليّ تزويج أهل الجنة وإليّ عذاب أهل النار وإليّ إياب الخلق جميعاً، وأنا الإياب الذي يؤوب إليه كل شيء بعد القضاء وإليّ حساب الخلق جميعاً، وأنا صاحب الهنات، وأنا المؤذن على الأعراف، وأنا بارز الشمس، وأنا دابة الأرض، وأنا قسيم النار، وأنا خازن الجنان وصاحب الأعراف، وأنا أمير المؤمنين ويعسوب المتقين وآية السابقين ولسان الناطقين وخاتم الوصيين ووراث النبيين وخليفة رب العالمين وصراط ربي المستقيم وفسطاطه والحجة على أهل السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما، وأنا احتج الله به عليكم في ابتداء خلفكم، وأنا الشاهد يوم الدين.

وأنا الذي علمت علم المنايا والبلايا والقضايا وفصل الخطاب والأنساب واستحفظت آيات النبيين المستحقين المستحفظين، وأنا صاحب العصا والميسم، وأنا

١- النور: ٥٥.

الذي سخرت لي السحاب والرعد والبرق والظلم والأنوار والرياح والجبال والبحار والنجوم والشمس والقمر، وأنا الذي أهلكت عاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً، وأنا الذي ذللت الجبابرة، وأنا صاحب مدين ومهلك فرعون ومنجي موسى عليه السلام، وأنا القرن الحديد، وأنا فاروق الأمة، وأنا الهادي، وأنا الذي أحصيت كل شيء عدداً بعلم الله الذي أودعنيه وبسره الذي أسره إلى محمد صلى الله عليه وآله وأسره النبي صلى الله عليه وآله إليّ، وأنا الذي انحلني ربي اسمه وكلمته وعلمه وفهمه.

يا مشعر الناس، اسألوني قبل أن تفقدوني، اللهم إني أشهدك واستعد بك عليهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله متبعين أمره) [1].

* * *

١- مختصر بصائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلي: ص٣٢ – ٣٤.

قراءة لما بعد قصدية النيلي:

توقف فهم النيلي فيما يطرح من نظرية القصدية عند النص حسب، وعمل بما قدم من فهم لاشك في نفعه حيث أدى إلى إعادة الحياة إلى نفس القارئ العاكسة للنص بعد أن حاول الاعتباط قتلها عندما جعلها تتوهم مباشرة النص من دون لسانه الناطق به، ومن ثم راح يتعامل مع النص كما يتعامل الطبيب وهو يشرِّح جثة لبيان حالها، متناسياً – أي الاعتباط – أنه إنما يتحدث من خلال تشريحه لجثة النظام اللغوي عن ماضي تلك الجثة الذي لا علاقة له بحاضرها إلا من خلال لسان المتحدث عنها !! ولذلك تكمن أهمية ما فعله النيلي في أنه أعاد الاعتبار للنص من خلال تصوره للنظام اللغوي بوصفه كائناً حياً ناطقاً وحاكماً، وهذا التصور على ما فيه من ملاحظات فهو يعد انطلاقة بالاتجاه الصحيح، ولكن قصور الباحث وربما تقصيره جعله يقف عند حدود النص لا يتعداه إلى هويته؛ أي اللسان الناطق.

وما سنقدمه في هذه القراءة يستند إلى حديث الثقلين الذي روي عن رسول الله ﷺ: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: **يا أيها الناس، إني تركت فيكم من ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي**) [1]، وتلك هي الحكمة النابعة من الغيب المتمثل بثابت ظاهر بين الخلق سماه الغيب (ميزاناً) يزن الخلق فيه حركتهم ويستبين اتجاههم؛ إن كان باتجاه الحكمة الذي ينشِّط فيهم المحور العمودي التصاعدي – الذي يصطلحون عليه بـ (الدايكرون) – نحو التكامل فهو محور نوعي، أو باتجاه الاعتباط الذي ينشِّط فيهم المحور الأفقي العرضي التوهمي، وهو محور متنافيات تكثري، محور كمي، مع الالتفات إلى أن المحور النوعي لا يعدم أن يكون منتجاً في المحور العرضي، بل ربما كان نتاجه العرضي أكثر مما ينتجه المحور الأفقي عند تنشيطه بتعطيل المحور العمودي، بينما المحور الأفقي لا يمكنه أن يثمر تصاعدياً تكاملياً ذلك لأنه يفترض أن المحور العمودي هو محور جامد (سكوني) أو كما يصطلحون عليه

١- الراوي: جابر بن عبد الله، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: ٣٧٨٦، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(سايكرون) لا اعتبار له وليس كما يعبرون عنه بأنه ثابت ذلك لأن الثابت ليس جامداً متحجراً، بل الثابت هو كمال مطلق جاذب للفرع المتنامي المثمر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء﴾[١].

وقد بين آل محمد ﷺ هذه الآية الكريمة حيث ورد عن: (أحمد بن محمد، عن علي بن سيف، عن أبيه سيف، عن عمر بن يزيد بياع السابري، قال: سئلت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فقال: قال: **رسول الله ﷺ والله جذرها، وأمير المؤمنين فرعها، والأئمة من ذريتها أغصانها، وعلم الأئمة ثمرها، وشيعتهم المؤمنون ورقها، هل ترى فيها فضلاً يا أبا جعفر**. قال: قلت: لا والله. فقال: **والله إنّ المؤمن يولد فيورق ورقة، وإنّ المؤمن ليموت فتسقط ورقته**)[٢].

لعل هناك ما يؤخذ على ثورة النيلي على نهج الاعتباط فهو نظر له نظر الخصم المصادر لكل ما يمكن أن يحسب لهذا النهج، فالإنصاف يتطلب أن نعترف لهذا النهج أنه كشف عن طريقة تعامل الفكر البشري مع نظام اللغة، حيث أنّ نهج الاعتباط عبر عن عجز الفكر البشري وعدم قدرته الذاتية على الوصول إلى معرفة الكيفية التي يعمل بها النظام اللغوي، بمعنى؛ كيف أطلق على (الرجل) هذا اللفظ ؟ وما علاقة اللفظ بما أطلق عليه ؟ وهل هذه العلاقة حقيقية ؟ ولما وجد الفكر البشري نفسه محاطا بهذه الأسئلة الملحة، عمل على محاولة الإجابة عليها، وغاية ما أمكنه الوصول إليه هو أنه لم يتعرَّف على سر العلاقة بين الدال والمدلول، وأنف أن يعترف بعجزه فأحال الجواب إلى ما كشف سلطوية (أنا) الفكر فنعت العلاقة بـ (الاعتباطية) ولذلك سمح لنفسه أن يتحدث عن وجود ترادف وتضاد في اللغة، وكذلك عن وجود المعاني المتعددة للمادة اللفظية الواحدة، ولاشك في أن هذا النهج ومخرجاته – التي أدخلت الفهم البشري للنظام اللغوي في متاهة السلوك فيها – ينماز بالفردية غير المثمرة.

١- إبراهيم: ٢٤.
٢- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص ٧٩.

وهذا ما كان ليستبين لولا هذا الجهد الذي بذله أولئك العاملين بالجانب التنظيري لهذا النهج، وهو تقديمهم للكيفية التي عمل بها هذا النهج الذي مارس سلطوية على الفهم البشري للنصوص، ومحاولاته المتكررة لجعل تأويل النصوص منجز فردي يتعلق بذات الأفراد من العامة، أي أن المنجز التأويلي لا يعدو أن يكون قراءة صائبة تحتمل الخطأ، مثلما أن تأويل آخر هو قراءة خاطئة تحتمل الصواب، ومن ثم استحال التأويل الذي هو غاية التنزيل، وأمل المنزَّل عليهم إلى قراءة متعددة ومتكاثرة عرضياً لا رابط بينها سوى أنها مخرج بشري حسب، ولكنه بالمقابل فقد القيمة، وفقد القدرة على توجيه الفكر البشري باتجاه التكامل الذي هو غايته التي يسعى إلى الالتصاق بها، بمعنى أن الفكر البشري ساع بجدية إلى بلوغ ساحة التأويل لأنه يعلم تمام العلم أنها وسيلته التي يتوسلها كي يتكامل عند الغاية التي أوجدتها، غير أن الاعتباط حاول تزييف الوسيلة بتوهمه أن التأويل أمر متاح للبشر كلهم وعليهم أن يتنافسوا فيه غافلا عن أن التأويل لا تنافس فيه لأنه قبلة العقول الدالة إلى الغاية التي عندها تكتمل العقول وتصبح شيئاً واحداً أي أنه عند التأويل تفقد تعدديتها وفرديتها وفوارقها، فالتنافس لا يكون في التأويل، بل هو في بلوغ التأويل، لأن التأويل هو الوسيلة الدالة إلى الغاية التي تسعى إليها البشرية في هذا العالم لتحصيل كمال المعرفة.

ولعل من الثابت في الفكر البشري أن التأويل مصطلح يتعلق باللغة، وحقيقته – المغفول عنها – أنه يتعلق بالإنسان بحسب ما ورد (عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بعض حجر أزواجه فانقطع شسع نعله فألقاها إلى علي يصلحها فقال: **إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله**. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله ؟ قال: **لا**. قال عمر: أنا هو يا رسول الله ؟ قال: **لا، ولكنه خاصف النعل**. قال: فبشرنا علياً بذلك فكأنه شيء قد سمع به) [1].

فصاحب التأويل إنسان وليس النص ولغته، مثلما هو صاحب التنزيل إنسان، وللقتال مستويات من الفهم يتنافس فيها الناس بدءاً من درجته الدنيا وهي؛ قتال الأبدان الذي غايته أن يبقى الأقوى ليدين له الباقون بالطاعة وامتثال الأوامر، إلى درجته العليا وهي؛ قتال

١- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - محمد بن سليمان الكوفي: ج٢ ص٥٥٤.

(الأنا) الذي غايته أن يبقى الأصلح ليدين له الباقون بالطاعة والتسليم، وهذا يعني أن هذا الأقوى والأصلح مثلما كان ساحة تنزيل، وهو رسول الله ﷺ الذي كان قائداً للأبدان والأرواح حاكماً لها مهيمناً عليها بأمر الله سبحانه، فكذلك الأمر سيكون في ساحة التأويل، أي أن الأمر يتعلق بالحاكمية فمثلما كان الرسول ﷺ في عصر التنزيل حاكماً للناس كافة بأمر الله سبحانه، فكذلك سيكون الأمر في عصر التأويل.

وربما هناك اختلاف بين العصرين – بحسب ما افهم – أن عصر التنزيل كانت الحاكمية فيه اختبار استحقاق للناس كافة، ففاز من فاز وفشل من فشل، ولقد ازداد الأمر صعوبة عندما عاش الفائزون والفاشلون في حرب مستمرة كانت الغلبة فيها على الدوام في صراع الأبدان للفاشلين، والنصر في صراع الأرواح للفائزين، والناس متوزعة بين الفريقين، ولعل السواد الأعظم منحاز إلى الغالبين في صراع الأبدان، والقلة القليلة من أهل البصائر هي التي تميل إلى المنتصرين في صراع الأرواح.

أما في عصر التأويل فسيكون النصر والغلبة للفائزين، أما الفاشلين فسيتأكد فشلهم ويحصدون ما زرعوا في هذا العالم عندما يتوحد السبيلان كما توحدا في عصر رسول الله ﷺ فحصد الفاشلون في زمنه مرارة الهزيمة مادياً وروحياً، وفي ذاك العصر انهزم من أعلن بفشله العصيان والتمرد على أمر الله سبحانه، ولكن بقي المنافقون الذين استبطنوا العصيان وأظهروا الإيمان، فكان بذلك عصر التنزيل كاشفاً للكافرين والمؤمنين وساتراً للمنافقين وأولئك سيكشفون في عصر التأويل، ولا ينجو في عصر التأويل غير من أخلص الإيمان ولم يُشِبه بشيء من العصيان.

ومثلما تعلق التنزيل بشخص عينته السماء، كذلك هو التأويل متعلق بشخص تنصبه السماء ويبتلى به أهل الأرض كما ابتلوا برسول الله ﷺ، فحيث لا يختلف المسلمون اليوم على أن الناطق بلسان التنزيل هو محمد ﷺ، فهم اليوم مختبرون بلسان التأويل الذي يجعل من النص كائناً حياً به قادراً على حمل الناس إلى مراتب التكامل العليا في المعرفة، ومثلما أنزل

الذكر بلسان من بعثه الله سبحانه رحمة للعالمين، فكذلك عليه أن يعود بلسان من بعثه الله سبحانه فصل خطاب بين المتنازعين.

قال تعالى: ﴿... وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، وتلك حقيقة ثابتة، يحاول الناس التمرد عليها في هذا العالم مراراً وتكراراً، ولقد حصدت البشرية من تمردها على أمر الله سبحانه بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله أنها فقدت ثمرة الكمال بالاستحقاق، وعلى الرغم من مرارة الفقدان تلك إلا أن البشرية سادرة في غيها لا تلوي على شيء، ولذلك كان لسان التأويل هو الفرصة الأخيرة للبشرية كي ينتظموا على وفق نظام التكامل المعرفي الذي أراده الله سبحانه لهم، وما يريد الله سبحانه كائن ولو كره الكافرون، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٢].

ولذلك كان عمل الباحث النيلي عملاً كبيراً ذلك أنه انتقل بالبحث اللغوي من ميدان استهلك الفكري البشري وتركه يراوح في مكانه طيلة قرون، إلى ميدان يوقظه من غفوته الطويلة باتجاه سبيل التكامل، غير أن ما قصر عنه النيلي هو أنه لم يستبن النبع الحقيقي للغة، فكلنا يعلم أن اللغة مرتبطة باللسان ارتباط المفهوم بالمصداق، فمثلما لا ظهور للمفهوم إلا بالمصداق الكامل الشامل، كذلك لا وجود لمصداق من دون مفهوم يعطيه حضوراً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[٣].

وينبغي أن نلتفت إلى أن (اللسان) ربما يقول قائل أنه شائع في الجنس البشري، ولكن الحقيقة هي أن ألسن البشر هي صور متعددة لجهات لسان كامل تام، مثلما عقولهم بواقعها هي صور أو أظلة لعقل كامل تام، بل أن المسمى (لسان) يصدق عليه الاصطلاح إذا مثل صورة للسان الأصل (المصداق الأصل)، مثلما هذا الذي في رؤوس الناس لا يسمى عقلاً إلا

١- الأنفال: ٤٢.
٢- الصف: ٨.
٣- الإسراء: ٩.

إذا كان عاكساً لجهة من جهات مصداق العقل الواقعي الكامل التام، بدليل قول الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن العقل، حيث قال له السائل: (ما العقل ؟ قال: **ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان**. قلت: فالذي كان عند معاوية ؟! قال: **تلك النكراء وتلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل**) [١]. بمعنى أن آلة الفكر والتدبير لا تكون عقلاً إلا إذا كانت تعمل باتجاه الرحمن وعلى وفق نهجه الذي شرعه لها، أما إذا كانت نفس الآلة تعمل باتجاه الشيطان فعند ذاك تفقد هويتها كونها عقلا لتستحيل شيطنة نكراء.

وكذلك سمى الحق اللسان المعبر عنه بـ (العربي) أي الواضح النقي الذي يفصح عما خفي، وسمى الآخر الذي يلحدون إليه بـ (الأعجمي) إذا لم يفصح عما خفي، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾**[٢].

وقال تعالى: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾**[٣].

فوصف الآلة الناطقة بـ (اللسان العربي) ليس بناءً على قوميتها وانتمائها النسبي، بل وصفها كان بناءً على اتجاهها، حيث وصف الحق اللسان الداعي إلى الحق سبحانه بـ (العربي)، ووصف لسان دعاة الباطل بـ (الأعجمي) ولذا فوصف العربية هو لقول الحق كائنا من كان قائله لأن العربية هي البيان، ولا يكون البيان إلا حقاً.

أما الأعجمي فهو كل قول ملتبس فاقد للبيان مضيع للغاية، ومن ثم فوصف اللسان بـ (العربي) لا يشير إلى القومية بأي صورة من الصور بدليل قول الحق سبحانه (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) مع أن المتحدثين هم من القومية نفسها، وورد عن (محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني رضي الله عنه، قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن إسحاق الماذراني

١- المحاسن - للبرقي: ج١ ص١٩٦.
٢- النحل: ١٠٣.
٣- فصلت: ٤٤.

بالبصرة، قال: حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد، قال: حدثنا غانم بن الحسن السعدي، قال: حدثنا مسلم بن خالد المكي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السلام، قال: **ما أنزل الله تعالى كتاباً ولا وحياً إلا بالعربية فكان يقع في مسامع الأنبياء عليهم السلام بألسنة قومهم وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم، وكان أحدنا لا يخاطب رسول الله بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية، كل ذلك يترجم جبرئيل عليه السلام عنه تشريفاً من الله عز وجل له)** [1].

إذن، الصفة هنا لم تلحق الحرف أو الصوت، أو النص، بل لحقت اللسان الناطق، وهذا يعني أن الفيصل في معرفة اللغة وقوانينها هو ليس – كما يصرح النيلي – وجود نص مقطوع بصحته، ذاك أن النص من دون اللسان يكون صامتاً لا يقدم معرفة، وهو ينطق باللسان، لذا فقوانين اللغة تؤخذ من اللسان الناطق وليس من النص حتى لو كان مقطوعاً بصحته، لأن النص لا قدرة له على كشف قوانين اللغة، فهي ليست مهمته، إنما هي مهمة اللسان. فاللغة بحد ذاتها نظام من الرموز قيمتها محكومة باللسان الناطق أي أن قيمة تلك الرموز لا يكمن فيها كما تحاول (النظرية القصدية) إثبات ذلك بل يكمن في اللسان الناطق بها، فإن كان اللسان الناطق بها من الله سبحانه كان النص عربياً، وإن كان اللسان الناطق من غير الله سبحانه كان النص أعجمياً بغض النظر عن قومية اللسان الناطق وانتمائه وهذا يعني خلاف القصدية التي تصورها النيلي وبين إنجازها حيث يقول: (تشتمل مرحلة الإنجاز في النظرية الموحدة على استخراج الحركة الكليّة للتسلسل الصوتي بالقواعد المذكورة في مرحلتي التشكّل والبناء. وبعد ذلك تتمّ ملاحظة موارد إطلاق اللفظ في الاستعمالات المتنوعة.

وباعتماد هذه المنهجية يمكن لأيّ باحثٍ مشتغلٍ بالنظرية الموحدة الإمساك بالحركة الكامنة للتسلسل الصوتي مهما كان، وعند التطبيق يمكنه القيام بما يلي:

١- علل الشرائع - للشيخ الصدوق: ج١ ص١٢٦.

١. فهم الدلالة الكامنة في التسلسل بطريقةٍ هي أوسع بكثيرٍ مما يذكره أي معجمٍ، بل أوسع من الاستعمالات كلّها من حيث أن لهذا التسلسل دلالة ظاهرية فقط عند الناس هي دوماً جزءٌ من الحركة الكليّة التي تكشفها اللغة الموحدة.

٢. تصحيح الاستعمالات اللغوية لأول مرّةٍ في التاريخ اللغوي من غير وقوعٍ في تناقضٍ مع مبادئ علم اللغة.

لأنَّهم في علم الألسن يؤمنون بتغيّر اللغة وباعتباطيتها في آنٍ واحدٍ، وبهذا فلا يجوز لهم القيام بالتصحيح ولا بمراقبة الاستعمال لأنّ دلالة اللفظ عندهم تظهر بعد الاستعمال لا قبله. إذن، فأيّ استعمالٍ أولى بالأخذ من غيره ؟!

عند الاعتباط لا يمكن الإجابة على السؤال، فكلُّ استعمالٍ جديدٍ لم يردْ من قبل لا يمكنهم تخطئته لأنه ربّما يكون بداية التغيّر الذي يؤمنون به كأمرٍ محتومٍ لا مفرّ منه من ظواهر اللغة. والتغيّر عندهم اعتباطيّ هو الآخر أيضاً. إذ كلّ ما يحصل كما يقولون هو أن اللغة تعيد نظامها بعد التغيّر، وإذن فلا شأن لأحدٍ بها ولا ضرورة لعلمٍ لا يضرّ ولا ينفع ولا يغيّر من الأمر شيئاً. بينما يحصل العكس في اللغة الموحدة التي تكون الدلالة عندها سابقةٌ على الاستعمال فيمكن رصد الاستعمال وتصحيحه.

إن الدلالة من وجهة نظر اللغة الموحدة هي حركةٌ كاملةٌ مطلقةٌ، فلا انتهاء لكشفها لأنها تكوين طبيعي، ولا انتهاء لأمثالها من الموجودات وحركاتها .. لذا فلا انتهاء للإبداع والكشف. لكن هذه الدلالة لا تختلط مع دلالة لفظٍ آخرٍ خارج الاستعمال، إنّها تختلط في الموضوع إذ الموضوع له حالات وفيه حركات كامنة، والموجود الطبيعي كموضوعٍ يستوعب عدداً كبيراً من التسلسلات.غير أن التسلسل لا يستوعب إلاّ نفسه من حيث كونه حركة، والعلاقة بين التسلسل والتسلسل هي كالعلاقة بين الموجود والموجود، فلا يكون الجبل بحراً ولا البحر جبلاً [١].

١- اللغة الموحدة: ص٧٧ – ٧٨.

إنّ هذا التصور يجعل من النص هو الحكم ولديه الفصل، بينما واقع النص لا يقول ذلك مطلقاً، إلا في حالة أن يكون النص ولسانه الناطق متماهيان، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام عندما احتكم الناس إلى النص بمعزل عن اللسان الناطق، استنكر فعلهم ورد عليهم بالقول الفصل: (**هذا كتاب الله الصامت، وأنا المعبر عنه، فخذوا بكتاب الله الناطق، وذروا الحكم بكتاب الله الصامت؛ إذ لا معبر عنه غيري**) [١]، وهذا يعني أنّ النص يبقى صامتاً عند الفصل إلا إذا ذاب النص في لسان ناطق، ولذلك فحجة النص كامنة في ذاته لا يظهرها إلا المكلف بإظهارها وهو الحجة الناطق، فحجة النص كامنة فيه ناطقة في لسانه لأن لسانه هو حضوره.

وهنا تكمن أهمية وجود الناطق عن الرحمن، لأن الخلق كلهم سواء من آمن أو من جحد فهم مخلوقون ليكونوا عباداً لمن يصغون إليه، فقد ورد عن (الحسين بن علي بن يقطين، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان**) [٢].

ومن ثم يتوضح لنا الآن هوية نتاج البشرية العلمي والمعرفي، فما كان صادراً عمن يؤدي عن الله سبحانه، فهو معرفة حق؛ الجهل بها يضر، والعلم بها ينفع، وإذا كان يؤدي عن غير الله سبحانه فتلك معرفة؛ الجهل بها لا يضر، والعلم بها لا ينفع، ولذلك كان علم العربية (النحو) – الذي هو منظومة آراء الناس ولم يصدر عمن كلفه الله سبحانه بالنطق عنه – علماً؛ الجهل به لا يضر ومعرفته لا تنفع، فقد ورد عن (الإمام الكاظم عليه السلام: **دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال: ما هذا ؟ فقيل: علامة !! فقال: وما العلامة ؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية، فقال النبي صلى الله عليه وآله: ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه**) [٣].

١- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ - محمد الريشهري: ج٨ ص٢٠٧.
٢- وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٣٦ ح٥.
٣- الكافي: ج١ ص٣٢ ح١.

بل لعل القول أنّ الانشغال بتلك العلوم الوضعية ضرره أعظم من نفعه، لأنه علم صارف عن التوجه إلى الحقيقة، فهو علم يسبح في الخط الأفقي التكاثري غير النامي، وهذا الخط يشغله الكم دون النظر والاعتبار إلى الارتقاء وصولاً إلى الحقيقة، ولذلك يلحظ على العلوم العرضية (الوضعية) أنها غير مشغولة ببيان الحقيقة، بل هي مشغولة بتكثيف النظر إلى (أنا العالم)، وهذا هو الواقع الذي نعيشه اليوم بكل تفاصيله، حيث نلحظ انفجاراً معلوماتياً، وكثرة هائلة في البحث والتأليف، ولكن هذه الكثرة كل بحث فيها يدور في فلكه ولا يشكل ذلك البحث خطوة ارتقاء باتجاه المعرفة الحق، ولذلك تجد أن المعارف الوضعية تقف موقف مجابه ومناهض للدين (الحق) لأنها تدرك أن الدين يطرح منظومة تطور ارتقائي عمودي على خلافها هي حيث تطرح منظومة تكثر عرضي تصطلح عليه تطوراً أو تقدماً، ولكنه تقدم وهمي لا يتوجه إلى الحقيقة بل كل توجهه هو إلى تحقيق (الأنا) التي لا سبيل إلى تحقيقها أبداً من دون التوجه إلى الحقيقة التي يعلن منظومتها الدين.

وهذه بعض النصوص الواردة عن ألسنة الحق والصدق تكشف عن أنّ العلوم الوضعية التي فتن بها الناس وخاصة اللغة ونحوها ما هي إلا علوم زخرفية العلم فيها لا ينفع وجهلها لا يضر:

أولاً: (جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ بلالاً كان يناظر اليوم فلاناً، فجعل يلحن في كلامه، وفلان يعرب ويضحك من فلان. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **إنما يراد إعراب الكلام وتقويمه، ليقوم الأعمال ويهذبها، ما ينفع فلاناً إعرابه وتقويمه إذا كانت أفعاله ملحونة أقبح لحن، وما ذا يضر بلالاً لحنه، إذا كانت أفعاله مقومة أحسن تقويم، ومهذبة أحسن تهذيب**) [1].

ثانياً: ورد عن (عن ربعي، عن حويزة بن أسماء، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنك رجل لك فضل، لو نظرت في هذه العربية. فقال: **لا حاجة لي في سهككم هذا**) [2]،

١- مستدرك الوسائل - الميرزا النوري: ج٤ ص٢٧٨ – ٢٧٩.
٢- المصدر نفسه: ص٢٧٩.

(والسهك: ريح كريهة تجدها من الإنسان إذا عرق) [١]، فالإمام الصادق عليه السلام يعد النظر فيما وضعه الناس مما اصطلحوا عليه (العربية) وهم يقصدون النحو والصرف، يعده رائحة كريهة، وتدبر هذا التوصيف الدقيق فالرائحة الكريهة مثلما تنبعث من مناطق التعرق كذلك هي تنبعث من الأفواه، فما ينبعث من الأفواه المستندة إلى الهوى والرأي هو رائحة نتنة كريهة.

ثالثاً: وروي عنه عليه السلام – أي الإمام الصادق – أنه قال: (**من انهمك في طلب النحو سلب الخشوع**) [٢].

رابعاً: ورد (عن حماد، عن ربعي، عن محمد بن مسلم، قال: قرأ أبو عبد الله عليه السلام ولقد نادينا نوحاً، قلت: نوح ! ثم قلت: جعلت فداك لو نظرت في هذا أعني العربية، فقال: **دعني من سهككم**) [٣].

خامساً: ورد (عن عبد الأعلى، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: **أصحاب العربية يحرفون الكلم عن مواضعه**) [٤].

سادساً: (حدثنا مسلم بن خالد المكي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السلام، قال: **ما أنزل الله تعالى كتاباً ولا وحياً إلا بالعربية، فكان يقع في مسامع الأنبياء عليهم السلام بألسنة قومهم، وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية، فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم، وكان أحدنا لا يخاطب رسول الله بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية كل ذلك يترجم جبرئيل عليه السلام عنه تشريفاً من الله عز وجل له**) [٥].

١- ينظر لسان العرب: مادة (سهك).
٢- المصدر نفسه.
٣- المصدر نفسه: ص٢٧٩ – ٢٨٠.
٤- المصدر نفسه: ص٢٨٠.
٥- علل الشرائع - الشيخ الصدوق: ج١ ص١٢٦.

في بيان الكلمة:

الكلمة هي؛ شق نوري لحجاب الغيب لتعريف القابل بالفاعل، ويعبِّر بها الغيب عن نفسه وبها تجلى وظهر، وبها عرَّف الغيب نفسه، ولعل قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[1] بيان لذلك، فغيبه (كلمته) والشهادة (خلقه) الذي به عُرِف، وهو سبحانه محيط بكليهما.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2]، فإحاطته بالغيب سبحانه هو دليل إحاطته بالشهادة كون الأول مهيمن على الثاني، والأول أصل وجود الثاني.

والكلمة (الغيب) لها حضور تعريفي كونها اسماً ووصفاً، والخلق (الشهادة) له ظهور تعريفي به تتجلى الكلمة الاسم والوصف، (وظهورك في جبل فاران) أي ظهور الله سبحانه بمحمد ﷺ، وتبدأ الكلمة حضورها التعريفي بالإشارة إلى (الكنز المخفي) بالضمير (هو) وهذا الضمير بمسماه هو دال على الخفاء كونه ضميراً أي إشارة لمضمر أي للكنز الخفي (الكنه والحقيقة)، والإشارة بالضمير (هو) هي تعريف للمكلف بالمعرفة بالسلب (اي بالتنزيه)، ف (هو) بوصفه تعريفا للكنز الخفي تعني من جهة – والجهة هنا تعبير باعتبار القابل لا الفاعل – الغيرية فتكون (هو) تعني: غير (أنا) المخاطَب، ومن الجهة الثانية تعني: لا (أنا)، والأول تعريف سالب للشخص وذلك باستشعار العبودية، والثاني سالب للشخصية وذلك بطلب الفناء حتى لا يكون موجوداً غير الموجود الحق، والثاني أرفع في المعرفة من الأول.

فالمعرفة السالبة بالغيرية هي المعرفة البدائية للمكلف، والأسمى منها معرفته بسلب الماهية (الشخصية) أي (لا هو إلا هو) وهذه هي غاية المعرفة والدافع إلى وجود الخلق، ومن هنا يمكننا أن نفهم قول يماني آل محمد ﷺ – ما معناه – (خلقتني بفضلك، وشرفتني بتكليفي

١- الرعد: ٩.
٢- سبأ: ٣.

معرفتك)، فالخلق هو تفضل من الخالق على المخلوق فهو سبحانه خلق الخلق لا لحاجة منه إليه، أي خلقهم وهو غني عنهم – ولا يُفهم من ذلك أنه سبحانه خلقهم عبثاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – بل خلقهم كما هو سبحانه بيّن سبب الخلق (ليُعرَف)، والتعريف ليس حاجة وإنما تفضل من صاحبه، فالجهل به لا يضره كما أن معرفته لا تنفعه ولكنها تعبير عن كرمه وفضله، وذلك أمر عظيم علينا نحن الخلق معرفته، فالتعريف السلبي هو في واقعه إرشاد المخلوق المكلف إلى (هو) حتى يبقى ناظراً إليه، فنظره إليه تعريف به أما الالتفات عنه هو تضييع لكرم الكريم وفضله، حيث بالإعراض عنه تنتفي معرفته، ويحل الجهل به، ومن هنا منشأ غضبه سبحانه وسخطه على عباده، فهو خلقهم له، ولم يخلقهم لأنواتهم، ولو كان خلقهم لأنواتهم لما تحققت الغاية من الخلق وهي المعرفة، لأنه سيذهب كل مخلوق إلى (أناه) وإذا ما اصطدم بغيره صار لابد من الصراع لإزاحته وإعدامه، ومن ثم سيصل إلى أن لا موجود غيره، وهو مفتقر لغيره فيقرر إعدام نفسه بنفسه ومن ثم تكون دورة الخلق على هذه الصورة دورة عبثية حيث أنه جاء من العدم لينتهي به.

أما الدورة الإلهية فبالعكس تماماً، ولذلك هي تعبير عن الكرم اللامتناهي، لأن هذا المخلوق الذي جاء من العدم ستكون غايته الخلود بكرم الكريم الواهب الوجود، وهذا ما لا تحققه معادلة المعرفة البشرية المستندة إلى (تحقيق الذات العدمية)، بل هو يتحقق بمعادلة المعرفة الإلهية المستندة إلى معرفته (هو) وذلك من خلال نكران (الأنا) في المرتبة الأولى وفي الثانية طلب فنائها فيه سبحانه لأن (هو) الوجود والحياة والعلم، و (أنا) العدمية والموت والجهل، ولذا الحكمة تقول أن الميل لابد أن يكون لساحته (هو) فبه يكون الوجود والحياة والعلم، وتتحقق إرادة الكريم من كرمه، وهذا ما حصل لمحمد صلى الله عليه وآله قبل الفتح، وعند الفتح، ليعود بعد الفتح متخلقاً بأخلاق الله سبحانه، فيكون هو الله في الخلق [1].

ولله (هو) جنبتان؛ الأولى: (الهاء) تشير إلى الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير وهو اسمه – أي ذاته، أي حقيقة الكلمة – و(الواو) تشير إلى الغيب أي إلى الكنز المخفي، فـ (هو) بطرفيها إشارة إلى الكنه والحقيقة، الكنه المعبر عنه بـ (واو) الغيب، والحقيقة المعبر عنها بـ

١- ينظر المتشابهات: ج٤ سؤال رقم ١٦٩.

(هاء) الثبات، وهذا الاسم لا يعلمه إلا هو ولذلك ورد في الدعاء عن الطاهرين عليهم السلام (**يا هو يا من لا هو إلا هو** – أي وجوداً – **يا من لا يعلم ما هو إلا هو**) – أي معرفة – فالمعرفة الحق مسلوبة من غيره، وغاية ما يمكن لغيره أن يعرفه هو تفريغ وعائه من (أناه) والاعتراف بحضرته سبحانه بالعجز عن معرفته، وهذا الاعتراف بالعجز عده الكريم هو غاية المعرفة للمكلف، لماذا ؟؟ لأنه سيكون بذلك المخلوق عارفاً بعدميته معترفا للكريم بفضله بإيجاده؛ أن الله أكرمه بإيجاده من العدم ولولاه لعاد عدماً، وشرفه بأن استعمله وسماه (عبده) فقرنه به وألصقه فيه.

والاسم هو تعبير دال على العلو والإعلام، وكونه (العلي الأعلى) فهذا مما لا جدال فيه فهو بين بذاته، وجهة الإعلام تحققت بقوله عز وجل: (**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأن أعرف**) [1]، فأعلم عن نفسه عز وجل ليعرِّف نفسه سبحانه لخلقه حتى يمكن لهم معرفته، فالاسم في حقيقته منطوٍ في طرف الثبات الـ (هاء)، والهاء هو بداية الضمير (هو) ونهاية الاسم (الله)، والغايات هي الرجوع إلى البدايات فيكون الانطلاق في المعرفة من (الهاء) والمنتهى إليها بالنسبة للمخلوق القابل، فالاسم في جهته الإعلامية هو دال على الصفة، ولذلك عز وجل وبيانا منه لحقيقة كرمه سبحانه وصف نفسه بالصفات التي هي في واقعها تمثل جهات لاسمه ومعرِّفة بالاسم المعرِّف به سبحانه، فكل صفة من صفاته هي غيره من جهة الحضور، وهي علامة دالة على اسمه سبحانه، فغاية الخلق أن يكونوا من أهل مدينة الكمالات الإلهية فالدخول إليها هو غاية السعي.

ولابد للمدينة من باب يفيض منه عطاؤه على خلقه، ومن هذا الباب يلج الساعون إليه سبحانه، سماه صاحبه (الرحمن)، قال تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ [2]، والسبيل الذي يجري به فيضه سبحانه سماه (الصراط المستقيم)، قال تعالى:

١- رسائل الكركي - المحقق الكركي: ج٣ ص١٥٩.
٢- الإسراء: ١١٠.

﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[١]، وهذا السبيل هي الصفات – إذا صح الفهم وجاز التعبير – وقد ترفق سبحانه بخلقه غاية الترفق فسمى مدينة المعرفة باسم جامع مانع، وسمى بابها باسم دال على كرمه مبين لجهتي الباب؛ باطنه وظاهره، فسمى بابه الرحمة، وفصل الاسم باعتبار جهتيه بـ: الرحمن – ظاهر الباب – الرحيم – باطن الباب – وجعل باب الرحمة هو محل فيضه وعطائه.

وبالمقابل لباب الرحمة جعل باب القهر ومن هذا الباب يتم أخذ العباد الذين جحدوا عطاءه وكرمه، وجعل لهذا الباب كذلك ظاهراً وباطناً، فكان الباطن هو (الواحد) الدال على نفي الشريك، والظاهر هو (القهار) الدال على إفناء غيره قهراً وهذا الباب هو باب المثلات والعذاب، وأوجده سبحانه ليكون رادعاً لعباده من الورود عليه منه، ولكن العجيب أن غالبية الخلق زهدوا في باب الرحمة وأعرضوا عنه، فوجدوا أنفسهم بالرغم من أنوفهم وجهاً لوجه أما باب العذاب والمثلات، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[٢].

فإذا كان الاسم في جهته المواجهة للخلق هو إعلام وتعريف، فالصفة هي جهة الاسم الإعلانية (البيانية)، وهي السبيل إليه، ولذلك عندما يقول اليماني عليه السلام: [إنّ الله واحد أحد وجميع الأسماء والصفات عين ذاته وليست أعراضاً تتصف بها الذات، ولا جواهر تتركب منها فهو الله الرحمن القادر] [٣]. نفهم أنّ الصفات إنما جعلت للناس كي يُقبلوا عليه سبحانه ومن ثم فإقبالهم بالنتيجة عليه (أي على ذاته)، بمعنى أن الإقبال على الكريم العليم الرحيم المعطي، إلى آخره من الصفات إنما هو بالنتيجة إقبال على الله سبحانه ذاته، ولذا فصفاته عين ذاته لأنها طرق الذات إلى الخلق كي يفدوا عليه سبحانه، وهي طرق كثيرة لا تعد ولا تحصى، فالطرق إليه سبحانه بعدد أنفاس الخلائق.

١- الفاتحة: ٦.
٢- غافر: ١٦.
٣- كتاب التوحيد - السيد أحمد الحسن عليه السلام: ص٢٥ – ٢٦.

فالكلمة هي حضور للحقيقة ودالة على الغيب، ولذا فالكلمة بذاتها هي غيب لتعلقها بالحقيقة، وهي حضور لأنها جهة الحقيقة، ولذا فالكلمة تنزلت، وفي كل رتبة هي الكلمة ولكنها كي تصير حبل الله الممدود بينه وبين خلقه كان لابد لها من حلقات؛ فالحلقة الأولى التي هي عند الله سبحانه: الحقيقة، ثم الحلقة الثانية المتعلقة بها: الظلال، ثم الحلقة الثالثة المتعلقة بها هي: المثال (الصورة)، ثم الحلقة الرابعة المتعلقة بها هي: الرمز أو ما يصطلح عليه بـ (اللفظ)، والرمز هو الكلمة بحضورها المشفر – إذا صح التعبير – عند الناس، ولذلك لزم أن يكون لهذا الرمز (الحضور المشفر) معلم يفتح هذا الرمز كي يكون طريقاً للمتعلم يرى من خلاله الصورة، ومن خلالها يركع للمثال لأن الركوع – والله العالم ورسوله ﷺ – هو دالة الدخول إلى عالم الملكوت، ومن ثم يسجد للحقيقة. ولابد أن يكون هذا المعلم هو وجود الكلمة المتحرك على أرض الواقع كي يتمكن المتعلمون من تمثله واتخاذه قدوة في العلم والعمل.

فحلقات الكلمة تشكل العوالم الأربعة التي رأى رموزها سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في عالم الملكوت وهي الواردة بقوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]؛ عالم اللاهوت (عالم الكلمة بذاتها)، وعالم الجبروت (عالم الكلمة بظلها)، وعالم الملكوت (عالم الكلمة بصورتها)، وعالم الملك (عالم الكلمة برمزها)، ولذا كان لابد من ناطق بالرمز في عالم الملك مبين لها فكان (كوكب الملك)، ولابد من مظهر لصورتها فكان (قمر الملكوت)، ولابد من معلن لنوريتها فكان (شمس الجبروت)، فهذه الرؤيا التي رآها إبراهيم (عليه السلام) في ملكوت السماوات والأرض كاشفة عن منظومة المعرفة، وإبراهيم (عليه السلام) كان باحثاً حقيقياً في سبيل المعرفة، ولذلك استطاع أن

١- الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩.

يقطع حلقاتها على وفق النهج الإلهي في المعرفة، فلا يمكن أن تتحقق المعرفة من دون السير على سبيل إبراهيم عليه السلام الذي كرمه الله عز وجل بأن سماه من شيعة المعلم، قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[1].

* * *

١- الصافات: ٨٣.

القرآن يكشف عن قانون الدلالة:

قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[١].

إنّ الفهم بأن (الباء) هنا سببية يكشف عن كون الداعي إلى إنزال الكتاب هو توفر الوعاء الموصوف بـ (الحق)، وبالحق الثانية بيان إلى أن هذا الوعاء الذي هو سبب الإنزال كذلك صار هو وعاء الإفاضة، ومن المعلوم أن وعاء إفاضة الكتاب لابد أن يكون رسولاً ناطقاً به، وهذا الرسول الناطق – وهو وعاء الحق – وظيفته مدارها الشهادة والتبشير والإنذار.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[٢]، وهذه هي أبعاد الرسالة فالرسالة هي شهادة يؤديها المرسل للناس بالوحدانية للواحد الأحد وهي مبشرة لمن صدقها وعمل بها، ومنذرة لمن كذبها وأعرض عنها، وانتساب التبشير والإنذار للرسول هو إشارة واضحة على أن الكتاب يكون مؤثراً متى ما كان ناطقاً أي جارياً على لسان الرسول ومن ثم فالرسول بهذا الاعتبار يكون مبشراً ونذيراً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾[٤].

هذه الآيات الكريمة تكشف عن أطراف ثلاثة في التنزيل، هي:

١. التنزيل؛ وهو الرسالة المعلمة المعرِّفة، فهذه الرسالة هي المخطط الإداري للواقع.
٢. المنزلين؛ هم الخلية العصبية الموصلة للرسالة من المرسِل إلى الرسول.
٣. المنزَل عليه؛ وهو الرسول المستلم للمخطط الإداري من أجل أن يعرفه للناس ويشرع بالعمل به.

١- الإسراء: ١٠٥.
٢- الأحزاب: ٤٥.
٣- الحجر: ٩.
٤- الإنسان: ٢٣.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]، فالحجاب هو التنزيل وهو الذكر وهو القرآن، فهو تنزيل باعتبار أنه نزل من رتبة عالية إلى رتبة الخلق (الدنيا) وتسميته بالتنزيل دالة على مروره بكل الدرجات وصولاً إلى هذه الدرجة، ولذا فكل درجة مر بها هذا التنزيل يكون له حضور وبين أهلها وهو حجة عليهم. وهو ذكر لأن فيه تعريف بالواحد الأحد وبيان لما وصف به نفسه، وبهذا الاسم يستبين معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام عن كلام الله سبحانه كونه صفته أي: المعرف به الموضح له المبيِّن عنه. وهو رسالة بيد رسول، وبما أنه تنزيل أي أن هذا الاسم كشف عن حال كلام الله سبحانه كونه نزل رتبيا من الأعلى إلى الأدنى، فهذا يعني أن نزوله من المرتبة العاشرة مثلاً إلى المرتبة التاسعة لابد أن يكون برسول، وهكذا من التاسعة إلى الثامنة وصولاً إلى المرتبة الأولى ومنها إلى الدنيا تتطلب رسول، وهنا يتبيَّن للقارئ معنى (إنا نحن نزلنا ...) فالتنزيل هنا في (نزلنا) يكشف عن التراتبية، و (إنا نحن والنا في نزلنا) تؤكد على تعدد المرسلين به وهذا التعدد يناسب تعدد المراتب، فلابد أن يكون من المرتبة الأولى إلى الثانية من رسول ينزل بالرسالة منها، وهكذا نزولاً، والقرآن يوضح لنا هذا المعنى عندما يعرفنا بمن أنزل القرآن إلى هذا العالم حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۞ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ۞ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۞ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ۞ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾[2]، والروح الأمين هو جبرائيل عليه السلام أمين الوحي وهذا من المسلمات لدى المسلمين عموماً، وحتى لدى الديانات السماوية الأخرى، والآية لم تقل عن الروح الأمين أنه (تنزل به)، بل قالت (نزل به)، بمعنى أن الروح الأمين هو المبعوث السماوي المباشر لأهل الأرض، وأين نزل به؟ نزل به على قلبك، فالقلب هو ساحة نزول الروح الأمين بالتنزيل، وهذا القلب مضاف إلى مخاطب، وهذا المخاطب هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم الرسول الذي تلقى التنزيل، وهنا ربما يرد سؤال: بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم هل توقف التنزيل أو هو مستمر ؟؟ وهذا السؤال

١- الشورى: ٥١.
٢- الشعراء: ١٩٢ – ٢٠٠.

مهم جداً لأن من خلاله سنعرف حقيقة قانون الدلالة، وبما أنه قانون فلابد أن يكون ثابتاً، ولكي يكون ثابتاً فلابد من استمراره، لأن القول بانقطاعه مع استمرار الخلق يستوجب التغيير أو استحداث ما يلائم استمرارية الخلق، والتغيير لا يكون في القانون ذاك أن القانون كي يكون قانوناً لابد أن يتصف بالثبات والإحاطة، وأي خلل في هاتين الصفتين يخرجه من حد القانونية إلى حد النظرية، لذا فمدام هناك رسالة غير منقطعة ولا متغيرة بل مستمرة مادامت السموات والأرض فلابد من وجود رسول يدلل على استدامتها والحفاظ عليها، وهذا الأمر ما بينه الحق سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١]، فمفردة (نزلنا) دالة على استمرارية الرسالة وكونها رسالة واحدة، و (إنا له لحافظون) دالة على استمرارية الإرسال وتعدد الرسل الحاملين لها، وبذلك تكون هذه الآية نافية للفهم الخاطئ الذي درج عليه الناس كون أن الإرسال انقطع بعد محمد ﷺ، أو انقطع بعد عيسى عليه السلام، أو انقطع بعد موسى عليه السلام، ولعل أظهر حجج القائلين بالانقطاع هي ما توهمه المسلمون حجة لوروده بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[٢].

وكذلك بما ورد عن الرسول محمد ﷺ من قوله لعلي عليه السلام: (... **وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**) [٣].

ولو التفت الباحثون ونظروا بدقة ولم ينساقوا خلف الهوى السياسي والصراع على مجريات الحكم التي حصلت بعد وفاة رسول الله ﷺ لاستبان لهم أن الآية الكريمة وصفت رسول الله محمد ﷺ بخاتم النبيين، ولم تقل خاتم الرسل بل قالت (رسول الله) وعطفت عليه صفة أخرى كونه (خاتم النبيين) وهذه الصفة هي غير دالة على انقطاع النبوة بقدر ما هي دالة على عظيم منزلة الرسول الأكرم محمد ﷺ فوصفه بالخاتم دال على أن نبوته جمعت كل الكمالات وبها ختمت الكمالات، ولا يأتي بعده رسول بغير ما أتى به هو ﷺ بدليل الآية

١- الحجر: ٩.
٢- الأحزاب: ٤٠.
٣- عيون أخبار الرضا عليه السلام - للشيخ الصدوق: ج١ ص١٣.

الكريمة الواصفة لرسالة محمد صلى الله عليه وآله حيث قال الله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

فكمال الدين هو بختم الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وآله ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: (**إلا أنه لا نبي بعدي**)، فالنبوة بكل تفاصيلها ومفرداتها ختمت بمحمد صلى الله عليه وآله فهو كمالها وذروتها، ولذلك كان هو صلى الله عليه وآله ظهور الله سبحانه في الخلق، وطاعته طاعة الله سبحانه، والله سبحانه فوّض إليه أمر العباد وأمرهم بطاعته فيما يأتيهم وفيما ينهاهم عنه، فقال عز من قائل: ﴿مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢].

ومن هنا صار لمحمد صلى الله عليه وآله أن يكون هو باعثاً لأنه هو أكمل المبعوثين وخاتمهم، ولكي يستمر الإرسال كان محمد صلى الله عليه وآله هو المرسِل للرسل من بعده، ولولا ذلك، ولو انقطع الإرسال لوجد الناس الحجة على الله في ضلالهم وتفرقهم وتنازعهم واختلافهم لأن الله سبحانه لم يجعل عليهم حجة يحتكمون إليه فيما شجر بينهم بعد محمد صلى الله عليه وآله !!! وهذا القول والرأي يرده الله سبحانه وينقضه بقول عز وجل: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٣].

فإذن الإرسال مستمر مادامت الرسالة موجودة، ومن يقول بانقطاع الإرسال يحكم بتعطيل الرسالة أو موتها – كما هو حاصل اليوم – ولكن ما حصل هو منهج الإرسال تغير،

١- المائدة: ٣.
٢- الحشر: ٧.
٣- النساء: ١٦٥.

وتغير المنهج لا يؤثر على ثبات النظام والقانون فالقانون يقول بضرورة وجود رسالة ورسول في كل زمان، مثلما كان هناك رسالة ورسول في كل عالم من العوالم التراتبية.

فقانون الدلالة على وفق ما بينه القرآن الكريم يكشف عن وجود ثلاث أركان ظاهرة معرفة بالمرسِل الحق وهو الله سبحانه، وهذه الأركان هي:

١. الرسالة الكلمة؛ أي معناها وما تحمله من تعريف بالمرسِل وتوضيح له وبيان عنه وهي ما يصطلح عليه بـ (المدلول)، وهي شيء من الحقيقة.

٢. الرسول الناطق؛ أي المعلم الحامل للرسالة والمبلغ لها، والمبين له فيكون بذلك هو جهة الربوبية بالاعتبار التربوي كونه المبلغ، وهو جهة الألوهية بالاعتبار العلمي كونه من يسد حاجة الناس بالمعرفة، وقد ورد عن الطاهرين عليهم السلام: (**من سمع ناطقاً فقد عبده، فإن كان الناطق من الرحمن فقد عبد الرحمن، وإن كان الناطق من الشيطان فقد عبد الشيطان**)، ولعل المائز في الكلام المسموع هو كون الكلام دال على الحكمة فيكون من الرحمن، أو دال على السفه فيكون من الشيطان، وهذا الحديث يجعل من الدليل الناطق هو حجر الزاوية في معادلة الدلالة، أو في قانونها، فغياب هذا الركن أو تغييبه يجعل عملية الدلالة تدور في دائرة مفرغة، كما هو حاصل اليوم في قراءة النصوص، وخاصة النص المنزل.

٣. الرسالة المنطوقة؛ بما هي رموز وألفاظ دالة على معان، فهذه الرسالة الظاهرة هي لسان الرسول وليست لسان المرسِل، فهي كونها لسان المرسل نزلت على قلب الرسول، فهي بوجودها في قلب الرسول فهي لسان المرسِل، ولكن بخروجها من قلب الرسول تكون بلسان الرسول لأنه خرجت على لسانه، ولذلك من هنا نفهم لماذا اتهم من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسالته أنها ليست من المرسِل الحق، حيث ذكر ذلك الحق سبحانه في عدد من الآيات من مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾[1]، أي أن هؤلاء يلحدون و(الإلحاد) فيه دلالة التسافل والدفن، ومفردة (أعجمي) دال على أن هذا اللسان الذي يلحدون إليه ينتج رموزاً (ألفاظاً)

١- النحل: ١٠٣.

ولكنها ألفاظ مستغلقة لا يمكن ترجمتها، وكون تلك الرموز تبقى محتفظة بتشفيرها ويصعب ترجمتها فهي بالنتيجة غير مبينة لذا فهي يصدق عليها الوصف بالعجمى، وكون اللسان الناطق بتلك الرسالة هو لسان عربي مبين لأن هذا اللسان قادر على ترجمة الرموز المشفرة وبيانها للناس، بل وأكثر من ذلك هو ترجمة تلك الرموز المشفرة إلى عمل يتوضح أثره في الواقع النفسي للسامعين، وكذلك الواقع الخارجي الذي يتبع بتغييره تغيير الواقع النفسي.

قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[١]، فساحة التغيير الأولى هي نفس السامع وأثر تغيرها يظهر في الواقع الخارجي، وهذا الأثر هو ثمرة التغيير النفسي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٣].

ولعل السبب المباشر أن رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليست كالرسالات التي سبقت، فهي رسالة كلامية، وجاءت تنافس القوم الذين نزلت فيهم فيما يعدونه بضاعتهم، فالعرب يعدون أنفسهم أمة البيان، ولذلك برعوا في فن الكلام؛ شعراً ونثراً، وتأليفاً للقول، وتوهموا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو من سنخ بضاعتهم، وما جعل هذا الوهم يستحكم في أنفسهم حتى في أنفس الكثير ممن تبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو كون القرآن كلمات، حيث شابه ظاهره ظاهر ما لديهم، ولكنه خالفه فيما لا طاقة لهم بدفعه أو تزييفه، وهو أن الرسالة التي يحملها هذا الكلام هي غير الرسائل التي يحملها كلامهم، فهذا الكلام يحمل رسالة تعريف بالحي القيوم الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي بين للناس كلهم أثر كلماته في الواقع النفسي للناس بله عن الواقع الآفاقي، فتعبير (الآية) هو الأثر الدال أو العلامة الواضحة وضوح الشمس في

١- الرعد: ١١.
٢- الأنفال: ٣١.
٣- الفرقان: ٥.

رابعة النهار ولما عجزوا عن مقارعة قول الرسول ورأوا بأم أعينهم فعل كلماته بالنفوس وصفوه بأنه ساحر، وغفلوا عن أن الساحر لا يفلح حيث أتى، لأن سرعان ما ينكشف سحره، أما كلمات محمد ﷺ فقد قلبت واقع الناس رأساً على عقب، فكيف تكون سحراً ؟؟!!

إذن، هذه الأركان الثلاثة لقانون الدلالة الغائب منها اليوم فيما يطرح الباحثون في هذا الميدان من الدرس اللغوي هو أهم أركانها، وهو الناطق بالكلمة، فالكلمة بما هي هي، فهي غيب لا يعرف وهي صامتة بذاتها وهذا دليل غيبيتها، وبما هي منطوقة فهي رمز يحتاج إلى ترجمة وبيان وتوضيح، لذا لابد لها من ناطق مبيِّن لها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1] فما المسكوت عنه في هذه الآية ويبينه المنطوق والمسؤول عن بيانه الرسول الناطق به ؟؟! المسكوت عنه هو (ولا نرسل من بعدك) بدليل (فاسألوا أهل الذكر)، فالآية الكريمة فيها التفات – وهو من فنون البلاغة في الكلام – حيث في بدء الآية كان الخطاب للرسول ﷺ، وفي منتصفها بيان إلى أن الموحى إليهم من قبله هم رجال مرسلون، والآن مهمة الإرسال واقعة عليك وعلى النهج ذاته أي أن يكون المرسلون رجالاً يوحى إليهم، وهؤلاء هم أهل الذكر، وهذه الآية دليل آخر على عدم انقطاع الإرسال، لأن من مهام الرسول هو البيان، فكل من يدعي مقام بيان الرسالة فهو يدعي أنه رسول، ولكي لا يضيع الناس، كان لابد من وجود ضابطة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتخلف في جعل الرسول وتوضيحه وبيانه للناس حتى لا يلتبس عليهم الأمر، فكان القانون أن هذا الرسول لابد أن يكون منصوصاً عليه ممن هو قبله من الرسل، فكما أن محمداً ﷺ نص عليه من سبقه من الرسل، فكذلك على محمد ﷺ أن ينص على من يليه من الرسل، فلا يكون كل من يدعي بيان القرآن هو رسول وبذلك تتفرق الأمة، ويتيه الناس – كما هو حالهم اليوم – فبوجود الضابطة تكون الحجة على من يختار التيه والضلال، وهذه الضابطة بينها الرسول ﷺ تفصيلاً وبينتها الرسالة إجمالاً، فالرسالة بينت إجمالاً صفات الرسول الناطق بها في كل زمان لابد أن يكون منصوصاً عليه ممن هو قبله من الحجج أي فيه وصية تذكر اسمه ووصفه، وهو أعلم الناس بالرسالة وأسرارها وخفاياها، وهو

١- الأنبياء: ٧.

الداعي إلى إقامة الرسالة حاكماً لأنها كلمة الحاكم الحق، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرضِ وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾[١].

فكونه منصوصاً عليه أمر أثبتته الرسالة الخاتمة حيث ذكرت أسماء المنصوص عليهم من قبل، ليستلزم ذكر المنصوص عليهم من بعد، وإلا فلا حكمة من ذكر اسم طالوت وذي القرنين لأمة هي لا تعيش قي زمانهم، فلابد أن يكون بذكرهم إشارة إلى أنه المنصب لابد أن يكون منصوصاً عليه بالاسم فالاسم بينة لا يمكن التشكيك فيها ولا يشكك فيها إلا من كان في قلبه مرض.

وهذا النص وإن جرى على لسان الرسول ولكنه نص إلهي وتنصيب إلهي ليس لأحد فيه مدخلية ولا حتى للرسول الناطق به ولذلك وجدنا مدى حرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على كتابة الوصية على الرغم مما كان يعانيه من آلام السم فكان حريصاً أن يجعلها وديعته عند عامة المسلمين في يوم الخميس، وكان ما كان مما أثبته البخاري في صحيحه مما لا سبيل لإنكاره أو التشكيك به حيث أورد في باب جوائز الوفد من (كتاب الجهاد والسير) ما نصه:

(حدثنا قبيصة: حدثنا ابن عيينة، عن سليمان الأحول، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه. وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، ونسيت الثالثة) [٢]، هذا بالإضافة إلى أربعة مواضع أخرى في:

١. ذكر الرزية في باب كتابة العلم.
٢. ذكرها في باب إخراج اليهود من جزيرة العرب من (أبواب الجزية والموادعة).

١- الجاثية: ٢٧.
٢- صحيح البخاري: ج٤ ص٣١.

٣. في باب مرض النبي ووفاته.

٤. في باب كتب المرضى.

ولما انكشف ما في صدور العامة طردهم رسول الله ﷺ وأبقى عنده خاصة مواليه ممن لم ينطق في ذاك الموقف ولم يخرج له صوت حيث طرد رسول الله ﷺ الناطقين الذين تعالت أصواتهم من الجانبين فوق صوت النبي ﷺ، وشهد أولئك الخاصة على الكتاب الضامن لهداية الأمة بعد محمد ﷺ وكان ذلك في ليلة وفاته أي عند حضور الموت تنفيذاً لأمر الله سبحانه الوارد في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[1].

وكون هذا المنصوص عليه بالاسم هو أعلم الناس يتبين من دعوته للناس الذين يزاحمونه منصبه للمناظرة بالرسالة وبيان خفاياها وكشف العالم بها، وإذا استمر عناد المدعين يدعوهم الناطق بالرسالة إلى المباهلة أمام الناس ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[2].

وكونه الداعي إلى تمكين الرسالة من الحكم فهذا يتوضح في سعيه وحركته في الواقع عندما يجاهد من أجل إعادة الرسالة إلى موقعها الحق الذي أزيح عنها بفعل الذين طمعوا فيه، وبتحقق هذه الضابطة بأقسامها الثلاثة يكون شخص الناطق بالرسالة الحق واضحاً ويتبين للناس أنه هو الدليل المغيب، الذي حاول الناس من خلال العبث بمعادلة الدلالة وقانونها تغييبه، فهو الحد الوسط الذي تتوصل الغاية به إلى المتلقي، ويتوصل به المتلقي إلى الغاية.

فظاهر الكلمة (اللفظ) هو رمز دال على رسالة، فالرسالة هي (الدال) وغايتها الوصول إلى (المدلول)، ولكن هناك حد وسط مغيب بين الرمز الدال، والمدلول عليه، وهذا الحد هو

١- البقرة: ١٨٠.
٢- آل عمران: ٦١.

الناطق بالرمز والمترجم له، وهو الحلقة المغيبة في معادلة الدلالة المشوهة بفعل الناس، فليس كل ناطق للرمز هو قادر على ترجمته وبيان سره، بل أن قدرة العموم على النطق بالرمز والتلفظ به ادعى لإقامة الحجة عليهم كونهم قادرون على التلفظ به ولكنهم عاجزون عن معرفة سره ولابد من وجود ناطق خاص مختار من بين عموم الناطقين ليكون هو صاحب البيان وهذا ما كشفت عنه واقعة تنصيب آدم عليه السلام خليفة لله.

إذن، ليس هناك اعتبار لنطق الرمز حسب بل لابد من أن يكون الناطق عارفاً ببيان الرمز وتوضيحه ومترجماً له، وهذا البيان لا يتأتى إلا إلى المنصب المجعول منه سبحانه، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1]، ومن علامات القرآن التي هي من أسراره وما استطاع أحد أن يتكلم فيها إلا من علمه الرحمن بيانها هي ما اصطلحوا عليه بـ (الحروف المقطعة) في القرآن فكل أولئك الذين حاولوا مقاربتها وعجزوا أحالوا معرفتها إلى الرحمن، ولو أنصفوا أنفسهم بوصفها لاصطلحوا عليها (الحروف المؤسسة) إذ عليها تأسس الكتاب وإليها وكِّل بيانه.

إلا إنهم اكتفوا بالتصريح بأنها من الغيب الذي لا يعرفه غير الله سبحانه وهي من أسرار الكتاب الذي لم يطلع الله سبحانه عليه أحد !! وهذا – كما يقولون هم – مصادرة على المطلوب، فجهل أولئك بأسرارها، لا يعني أن الرحمن لم يعلمها أحد، بل ما يعنيه قولهم هو إنهم ليسوا من أولئك الذين علمهم الرحمن سرها، فحتى لا يفتضح جهلهم قلبوا القاعدة رأساً على عقب، فالحق سبحانه يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۞ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾[2]، فماذا يقول أولئك الذين حكموا باستحالة علم ما جهلوه وهم يقرؤون هذا الاستثناء (إلا من ارتضى من رسول) ولماذا الاستثناء شخص الرسول ؟؟ فليس لهذا الاستثناء من معنى غير أن الرسول هو من يعلم، وعلمه من الرحمن سبحانه فهو من علمه القرآن وعلمه البيان، علمه القرآن بأن جعله

١- الرحمن: ١ – ٤.
٢- الجن: ٢٦ – ٢٨.

نازلاً في قلبه فصار علامة له، وعلمه البيان لما خفي عن الناس من أسراره وخفاياه التي لم يطلع عليها غير الرسول المعين.

ولو كان علمه متاح لكل من نطق بالعربية لعرف الناطقون بها سر قراءتهم لافتتاح سورة البقرة بـ (ألفْ لامْ ميمْ) مع أنها مرسومة هكذا (ألم) ولم يقرؤوها كما يقرؤون افتتاح سورة الانشراح التي تبدأ رسماً برسم مشابه لافتتاح سورة البقرة وهو (ألم) فلماذا بالبقرة يقرؤونها مقطعة بأسماء الحروف، وفي سورة الانشراح يقرؤونها متصلة بمسمى الحروف فمسماها دال على أن الألف للاستفهام، و (لم) أداة نفي وجزم وقلب ؟؟!! وما معنى الأحرف المقروءة بأسمائها وليس بمسمياتها ؟؟ وإلى ماذا تشير ؟؟

كل ذلك لم يستطع أحد من الذين قاربوا القرآن وهم ليسوا رسلاً منصبين من الله سبحانه أن يعرف بيانه فأعلنوا عجزهم وهروبهم الواضح أمام هذه الرموز التي لا يعرفون ترجمتها، ولو أنهم اتبعوا وصايا الكتاب لعادوا إلى الركن المغيب حتماً، حيث قال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[1]، وهنا ملحظ في الآية الكريمة مهم أن ننتبه له وهو مجيء لفظ (الرسول) معرفة وهذا فيه دلالة لا تخفى على من لديه مسكة عقل أن العالم بالاستنباط هو رسول من الله، وهذا الرسول ليس مجهول الحال بل معروف بتعريف الله سبحانه المرسل له، وليس معروفاً بتعريف الناس إذ لا اعتبار لتعريف الناس إذا كان عند الله سبحانه غير معروف.

وعلى الرغم من أنهم يفسرون (أمر من الأمن أو الخوف) بالقتال والسرايا وما إلى ذلك، ولكن من يتدبر الآية بعين قانون الدلالة يجد الأمر أعظم من تلك الجزئية بكثير، بل ما ذكروه من تفسير لها هو إساءة بحقها وتسطيح لها، فهي أجل وأعظم منه، فالأمن لا يكون إلا باتباع دليل هادٍ، والخوف لا يكون إلا بفقدان الدليل الهادي لأنه سيكون نتيجته الضياع

١- النساء: ٨٣.

والهلاك، ومن هنا مبعث الخوف، فالأمر هو واحد، والأمن والخوف جهتان، وفعلهم حيال الأمر هو من يحدد أي الجهتين يختارون، ف (أذاعوا به) أي أعلنوا بالأمر وتداولوه بينهم وكأنه أمرهم والإذاعة به جعلتهم يسيرون في سبيل الخوف، ولو كانوا اختاروا الأمن لردوه، والرد هو الإعادة، وهنا إشارة كأن الأمر صادر من الذين سيرد إليهم وهم الرسول وأولي الأمر من بعده، ودلالة البعدية واضحة من قوله (وإلى أولي الأمر) فإعادة حرف الجر (إلى) بعد واو العطف دال على البعدية، (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) دال على أن علم الأمر منحصر في أولئك المعينين، وليس لأحد أن يستنبطه غيرهم، ولذا فكل من يدعي استنباط معنى من الكتاب فهو مطالب بالدليل على أنه من أولئك الذين يستنبطونه أي معين من الله سبحانه، وإلا فهو كاذب مفتر على الله سبحانه وعلى كلماته.

إذن، مما تقدم نعرف أنّ القرآن بين لنا أركان الدلالة، وجعل هذه الأركان قانوناً يعرف به كلام الله سبحانه، ولا يمكن لأحد أن يعرف الكلام من دون هذا القانون، والدليل على عدم معرفة الكلام هو واقع الدرس اللغوي اليوم، فهو يتخبط العشواء في طريق الاعتباط، وحتى محاولة الباحث عالم سبيط النيلي في نظرية القصدية التي جزم أن الحل يكمن فيها فهي وإن هدمت صرح الاعتباط اللغوي وبينت أنه صرح من رمال، ولكنها أيضاً حذت حذوه في العمل، فالاعتباط يرى أن لا رابط بين الرمز (اللفظ) وما يدل عليه (المعنى)، وأن ارتباط الرمز بمعنى معين لا يعدو أن يكون عملاً اعتباطياً لا قانون ينتظمه، هكذا جاء الارتباط عفوياً بدوياً، وعلى هذه العفوية تعارف الناطقون بها وتسالموا عليها.

وأما الباحث النيلي، فهو يستند إلى أنّ النظام اللغوي نظام متكامل لا خلل فيه ولا ثغرة، ولا يكون الشيء منظما هكذا وبهذه الدقة من دون وجود قصدية أنشأت هذا النظام، فلا يمكن أن يبني الاعتباط نظاماً، ولكن القائلين بالاعتباط جهلوا سر هذا النظام ومنشأه، وأنفوا من الاعتراف بجهلهم، فأحالوا جهلهم على النظام فوصفوه بالاعتباطية !! وكذلك ليحققوا من وراء هذا الوصف مساحة كبيرة للعبث بالنظام وتكييفه على وفق ما يريدون ويرتأون، ذاك أن انعدام النظام أو عفويته يعطي للعامل فيه فرص تكييفه على وفق منظومة يراها ذلك العامل هي أفضل من إعلان الجهل بمنشأ النظام، وحتى يتمكن من إدخال ما

يريد إدخاله على النظام إذا ما نجح بتكييفه على وفق ما يضعه هو من قواعد، ولذلك كلما وجد القائلون بالاعتباط أنفسهم في مأزق أحالوه على الاعتباط حتى يتخلصوا من تبعات ذلك المأزق.

ولكن على الرغم من ذلك فتبعاته لحقتهم بسبب أن اللغة نظام كامل متكامل، لا يمكن خرقه، لعل وقوع المتشابه في النظام أتاح للعابثين فرصة الدخول إلى عالمه ولكنهم بمجرد الشروع بالعمل فسيفتضحون ويستبين أنهم ليسوا من أهله، وهذا ما وصل إليه الاعتباط، وكيف أنه عبث بالنظام وخربه في أنفس الناس ولم يستطع أن يخرب ذات النظام، والسبب في تخريبه في أنفس الناس هو أن الناس ارتضت لأنفسها اتباع قوم أعلنوا لهم أن نظام اللغة مؤسس على اللا نظام !! ولذلك فالناس شاركت في تخريب النظام في أنفسها وها هي اليوم تدفع ثمن هذا التخريب من خلال الاستهانة بقدسية النصوص المقدسة، لأن غاية الاعتباط هو نزع القدسية عن النصوص المقدسة، ولما عجز عن نزعها من النص ذاته، عدا على أنفس الناس لينزع القدسية من أنفسهم، ليدفعهم حتى يتجرؤوا على النصوص المقدسة ويعبثون بها، ولكن لأن النظام اللغوي حصين وهذه النصوص قدسيتها كامنة في ذاتها لا في أنفس الناس، فالعبث فيها يفضح العابثين أكثر من أن يؤثر بالنصوص، بل أنه لا يؤثر بالنصوص ذاتها مطلقاً، ولكن أثره يقع على الناس القارئين لتلك النصوص، وهذا ما يعيشه الواقع اليوم بوضوح.

إنّ كل ما فعله الباحث النيلي هو أنه بين تناقضات الاعتباط، وكشف أنه لا يعدو أن يكون قصراً من رمال ما إن تهب عليه ريح الحقيقة حتى يتداعى، وكان في ذلك الباحث موفقاً جداً، ولم يستطع أحد من الذين يتمسكون بمنهج الاعتباط الرد عليه أو تفنيد نقضه لمنهج الاعتباط، فيكون الباحث عالم سبيط النيلي هو أوضح من عمل على هدم هذا المنهج (أي منهج الاعتباط)، وربما تكون هناك محاولات سبقته ولكنها محاولات لم ترق إلى ما بينه النيلي من تناقضات منهج الاعتباط وتداعيه، وبيان أن الاعتباط لا يعدو كونه خدعة كان الهدف منها تخريب النصوص المقدسة، من خلال نزع قدسيتها في أنفس الناس.

ولكن ما يؤخذ على النيلي أنه أسس لمنهج من حيث الأصل هو يلتقي بمنهج الاعتباط، حيث جرى في بنائه لمنهجه على وفق ما جرى عليه من أسس للاعتباط، وربما للاعتباط غايته التي كان يسعى لها من وراء اجتراح نهج الاعتباط فأصاب غايته، أما النيلي فكانت غايته الإصلاح ولكنه لم يصبه، ولذلك حاله أفضل بكثير من أصحاب منهج الاعتباط، وهو بعمله يستحق الإشادة والاحترام، فهو رحمه الله ينطبق عليه قول الطاهرين عليهم السلام: (**ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه**)، فأهل الاعتباط طلبوا الباطل وهم يعرفون ذلك وإن لم يصرحوا به فأصابوا غايتهم وهي التخريب، أما النيلي رحمه الله فكان يريد أن يصيب الحق فأخطأه، ولذلك لو لم يكن في منهج القصدية غير تهديم هيكل الاعتباط ونقضه لكفاه.

أما ما أنشأه بديلاً لهذا النهج التخريبي المسمى بالاعتباط، فهو بقي يراوح في مكانه لأنه أيضاً غفل عن الحد الوسط، بل أن النيلي رحمه الله توهم أن الحد الوسط كامن في ذات الرمز، وهذا الكمون تبينه الحركة الفيزياوية لصوت الرمز وحشد لذلك الأمر كل ما يمتلكه من معرفة بخصائص الحركة الفيزياوية وحدودها وقياساتها، ولا أحد ينكر أن في حركة الرمز الصوتي ما يدل على شيء من ذلك وهذا الشيء إنما اكتسبه الرمز من اللسان اللافظ له، فالمتلقي يستشعر حيوية حركة الصوت استناداً إلى وقعه عليه، وهذا الوقع هو من آثار اللسان اللافظ للصوت، وليس من آثار الصوت ذاته، بدليل أن كلمة ما ينطقها شخص وهو صادق في نطقها ويريدها أن تنقل حقيقة ما يمكنها أن تنقل فيكون مؤثراً ولكلمته وقع مؤثر، وآخر ينطق الكلمة نفسها ولكنه غير صادق في تحميلها ما وجدت لحمله فتخرج باهتة باردة حتى أنها خالية من الحيوية، ولذلك فحيوية صوت الرمز هي من آثار اللسان الناطق به وليس من ذات حركة الصوت وهذا الشيء من الأثر وجد في الصوت ليكون دالاً على اللسان الناطق به، ليعرف الباحث حقيقة حيوية الصوت ومساحة أثره في المتلقي.

ولذلك من يقرأ النظرية القصدية يجد أن صاحبها حشد لها كما هائلاً من التنظير، ولكن بقي أثرها على الواقع محدوداً، بل ربما لا يتجاوز كون أن هذه النظرية شكلت نقضاً كبيراً لنظرية الاعتباط اللغوي لا أكثر من ذلك ولا أقل، أما ما نظرت له فهو لا يزال حبيس

السطور، وربما يتهم الواقع في عدم الاستفادة من تلك النظرية، ولكن هذا الاتهام يكون مردوداً إذا علمنا أن هذه النظرية حاولت إصابة الحقيقة فأخطأتها، وخطؤها يكمن في أنها سارت على نهج سابقتها – ولكن من غير قصد منها – في تغييب الحد الوسط في قانون الدلالة وهو اللسان الناطق الذي يعد تغييبه تضييع للدلالة وخروج عن سبيلها الصحيح ووقوعها إما في حد الإفراط عندما يجعل المتلقي من نفسه هو اللسان الناطق من دون أن يلتفت، أو يقع في حد التفريط عندما يجعل أن المعنى مستبطن في ذات الرمز اللغوي، فيجعل المسمى في الرمز عين الاسم، ويجعل من الموصوف فيه عين الصفة، والحقيقة تقول أن الاسم غير المسمى، والصفة غير الموصوف، إنما جعل الاسم هوية للرمز ليكون دالاً على المسمى بواسطة الناطق، فالذي يدل على الله سبحانه ليس لفظ الجلالة بذاته بل اللسان الذي نطقه وأخرجه من الغيب إلى الظهور، وكذلك فهو المبين والمعرف بهذا الرمز (لفظ الجلالة) والمظهر له ولصفاته.

فالمدلول هو الغاية التي من أجله كان الرمز ظاهراً كي يكون علامة دالة عليها ولكن ما بين الدال والمدلول مسافة هي مسافة المعرفة وهذه المسافة لا يتم إنجازها إلا بوجود الدليل الرائد القائد، فالدليل بوصفه رائداً يكون عارفاً بالغاية، وبوصفه قائداً يكون معرفاً بها، ولذا وجوده في قانون الدلالة ضرورة لا سبيل إلى تجاوزها أو تغييبها أو مغادرتها لأن ذلك سيكون سبباً في ضياع المعني بالدلالة وهو المتلقي، وكذلك ستضيع الغاية التي من أجلها كان الرمز ظاهراً متداولاً.

* * *

في القانون اللغوي:

لعل من ضمن حالات التخبط التي يعيشها الفكر البشري هو عدم كشفه عن قانون يحكم اللغة وتصير تلك الملكة التي ميزت الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات عاملة على وفق النظام الذي جعله الله سبحانه في الكون بأجمعه، فنظريات نشأة اللغة كلها تبدأ من نقطة معينة على خارطة التاريخ البشري لتنتهي بالنتيجة إلى نهاية مفتوحة لسان حالها يقول: (وكل يدعي وصلاً بليلى)، ولذلك كثرت تلك النظريات حتى صار من العبث البحث في هذا المجال لافتقار المبحوث عنه إلى قانون يحكمه، ومن خلال هذا القانون تستبين مسيرته التاريخية، وما مدى التطور الحاصل في تلك المسيرة وماهيته، وأين مفاصل التغيير والتحول فيه والآلية التي يعمل بها ذلك النظام، وبعد أن أغلق باب البحث في قضية النشأة، انشغل الباحثون بالآلية التي تعمل بها تلك الملكة، وما جعل البشرية تضطرب حيال تلك الملكة هو هذا الاختلاف في العامل المحسوس منها وهو اللفظ، فلكل أمة نظام لفظي يختلف عن غيرها، على الرغم من أن تلك الألفاظ ما هي إلا علامات تشير إلى شيء من المعنى، فهذا الظاهر المحسوس علاقته بالمعنى علاقة إشارة المرور الخضراء – مثلاً – بالمعنى الذي يفهمه السائق من أن الطريق سالك، ولكن من الذي أعطى هذه الإشارة هذا المعنى الذي لا يختلف فيه سائقو العالم كلهم ؟؟ الذي أعطى ذلك المعنى هو النظام، ولولا وجود النظام والقانون الذي يحكمه لما عرف السائقون في العالم أن العلامة الخضراء تعني أن الطريق سالكة أمامهم.

وكذلك اللغة هي نظام من الرموز تشير إلى شيء من المعنى، وهذا الشيء من المعنى إما أن يتحصل عليه الناس من عالم الوهم والعوالم السفلية، أو يتحصلون عليه من عالم الملكوت وحقائق الأشياء فيه، وهذا العالم هو عالم المتشابهات والأحداث فيه إما أنها لا تقع أصلاً، وبالتالي فإن معنى اللفظ المرتبط بها لا يتحقق أيضاً في أي زمن من الأزمنة، وأما أنها تقع

وصادقة ولكنها على وجوه عديدة، لكل منها أهل وزمان ومكان تقع فيه. وتبين للناس في هذا العالم السفلي من قبل المعصوم عليه السلام [١].

واستناداً إلى ما بينه يماني آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم يمكن أن نتحصل على القانون اللغوي الذي هو بيان واضح وجلي على أن تلك الملكة التي وهبها الله سبحانه للإنسان وجعلها ميزة فيه تجري على وفق النظام الكوني، ولا تسبح في الفضاء لوحدها خارج ذلك النظام، وهذا القانون يتألف من:

١. اللفظ وهو العلامة المادية المحسوسة التي تشير إلى شيء من المعنى، ومن ثم فهي بمثابة القشر لـ (اللب).

٢. المعنى وهو اللب، وهذا اللب إما أن يكون حقيقياً عندما تتحصل عليه ملكة الوهم من عالم الملكوت، أو افتراضياً تصورياً عندما تتحصل عليه من عالم الظلمة.

٣. اللسان المبين (الميزان) القادر على كشف مصدر المعنى، وبيانه، بحيث يعد اللسان المبين هو الآصرة التي تربط اللفظ بالمعنى، وغيابه يجعل اللفظ مردداً بين عالمي الظلمة والملكوت، وتغيبه يجعل اللفظ يشير إلى المعنى المتحصل من عالم الظلمة والعوالم السفلية، ومن ثم فهذا المعنى المتحصل هو غير حقيقي ولا قيمة له.

إنّ الكشف عن القانون اللغوي يجعل الباحثين يستبينون تاريخ النظام اللغوي ومسيرة تلك الملكة وتحولاتها باتجاه التغيير والتطوير، ومن ثم الخروج من الدائرة المفرغة التي حكمتها النظرية الاعتباطية (العفوية)، وإحكام ما قصرت عن بلوغه النظرية القصدية، فنظرية الاعتباط لأنها استندت في عملها إلى منهج التجريب المادي في اكتشاف قوانين الأشياء، بقيت حائرة تدور في فلك اللفظ بوصفه المعطى المادي الوحيد في ذلك النظام ولذا فمنهج التجريب لا يقدم لهذا الميدان غير تفسيرات فيزياوية عن حصول الأصوات ومخارجها، وما يتعلق في إنتاجها، وحاول الباحثون من خلال تلك القيم الفيزياوية للأصوات ربطها بالمعطى النفسي الذي

١- ينظر كتاب المتشابهات - للسيد أحمد الحسن عليه السلام: ج١ سؤال رقم ١٩.

يحدثه كل صوت أو تركيب في نفس المتلقي، وغرقوا واستغرقوا في التفاصيل حتى ما عاد القارئ يفهم شيئا مما اصطلحوا عليه بـ (علم اللغة).

وما دعا إلى شيوع هذا المنهج هو النظام الحاكم للحياة، أي حياة كل شعوب الأرض، فالنظام الحاكم هو نظام قائم على الاعتباط، أي ليس هناك علاقة حقيقية بين كرسي الحكم بوصفه المعنى الدال على الحكم، وبين الشخص الجالس عليه والذي أخذ لقب الحاكم استناداً إلى جلوسه على ذلك الكرسي، وهذه العلاقة الاعتباطية شاعت في حياة الناس ولم تجد من يتصدى لها طوال المسيرة البشرية غير الأنبياء والمرسلين والحجج الإلهيين عليهم السلام ومن تبعهم وسار على سبيلهم، وأولئك كانوا في كل زمان قلة لا يستطيعون أن يصححوا مسار البشرية بسوادها الأعظم، حيث أن هذا السواد الأعظم اختار سبيل الاعتباط لأنه يوفر له التعاطي مع الحياة على وفق الإرادة البشرية المحكومة بالتغير والتحول وعدم الثبات، بينما سبيل الحجج الإلهيين هو سبيل الحقيقة والثبات، والتطور.

ومن الأشياء التي أحدثها الاعتباط في المسيرة البشرية هو تسميته التغير المادي في الحياة تطوراً، وواقع الحال هو ليس تطوراً بقدر ما هو تغيُّر استجابة للواقع النفسي البشري، والتغير هو علاقة عرضية بين المراحل، وهذه العلاقة العرضية تقتضي أن لا ارتباط حقيقي بين المرحلة (س) وسابقتها ولاحقتها غير ارتباط المجاورة، وهذا الامتداد العرضي لا يسمى تطوراً بقدر ما يسمى تحولا أو تغيراً، أما التطور الحقيقي هو ذلك الامتداد التصاعدي العمودي بحيث يكون اللاحق خارج من رحم السابق، ويشكل السابق أصلاً وركيزة ودعامة إلى اللاحق، ومن دون وجود حلقة السابق يكون اللاحق منقطعاً، ومن ثم ما تتوهمه البشرية في حركتها الحضارية من أنه تطور، ما هو إلا تحول إذ لا علاقة تطورية بين انتقال المجتمعات من مرحلة الرعي والعيش في الصحراء إلى مرحلة الزراعة والاستقرار على شواطئ الأنهار، ولا علاقة لذلك بالانتقال إلى طور الصناعة والمكننة، وصولاً إلى الحال الحاضر الذي تعيشه البشرية وهو هذه المرحلة التقنية أو ما يصطلحون عليها بـ (الثورة التكنولوجية) وحتى تعبيرهم عنها بالثورة هو كاشف عن أن حقيقة المسيرة هي مرتبطة بالتغيير والتحول، ومن ثم فهذا التغيير والتحول لا علاقة له بالتطور لا من قريب ولا من بعيد.

إنّ مسيرة المعرفة البشرية على وفق نهج الاعتباط هي بالنتيجة معرفة تراكمية تتحشد فيها المعلومات بكم هائل، ولكن هذا الكم الهائل من المعلومات ليس سوى وجود (تلي) أو (جبلي) يظهر الكم الهائل، ولكن في حقيقة وجوده لا ترابط بين هذا الكم الهائل من المعلومات، ولكي تتخلص الحضارة البشرية من هذا المأزق الذي شكل ضاغطاً واقعياً عليها، ابتدعت لها متنفساً في مسألة التخصص، والتخصص الدقيق إمعاناً في التقسيم إلى أجزاء، وأجزاء الأجزاء حتى لا يبقى جامع حقيقي لمركب واحد من المركبات الحياتية، بل كل ما يتوهم أنه تركيب ما هو إلا كم من المعلومات باتجاه ما يحاول الإنسان باستخدامه لطاقة الوهم إيجاد ترابطات افتراضية بينها، ومن خلال هذه الترابطات أو التداعيات يتوهم ويوهم بوجود علاقة بين هذا الكم الذي جمعه وحاول صياغته بطريقة ما، ولكن سرعان ما يأتي آخر وينقض هذا البناء ليبني آخر، وهكذا تتكرر العملية، حتى تصير لهواً لا سبيل إلى مغادرته كمثل اللهو الذي يمارسه الناس على شواطئ البحار عندما يقضون الساعات لبناء قصور من الرمال !!!

إنّ سعي البشرية على طوال مسيرتها التاريخية إلى تغييب مفصل الإحكام في كل حركتها جعلها تتيه في صحراء المادة، ولم تشعر بمأساة التيه بل راحت تسعى خلف كل سراب يظهر أمامها ممنية النفس أن قد يكون هذا السراب ماء، وواقع الحال أن لا ماء في صحراء لا دليل فيها، فمشكلة البشرية أنها لما شرعت في قطع الصحراء عملت على تخريب نظام الدليلية، هذا **أولاً**.

وثانياً: اجتهدت في محاربة من يبعث دليلاً لإنقاذها من حالة التيه التي تعيشها، ولكي تكمل عملية التخريب تلك عملت على تنصيب دليل من تلك البشرية التائهة، ولا أدري كيف للعقول أن ترضى لها دليلاً هو مشارك لها في حالة التيه ؟؟؟!!!

وعلى الرغم من تلك المحاولات ولكن الله سبحانه كما وصف نفسه جلت قدرته بقوله تعالى: ﴿**وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم**

﴿بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[١]، ولذلك فمبعوثوه الأدلاء الحقيقيون لم يألوا جهداً في هداية الناس إلى سبيل النجاة، والعمل على تحويل مسار المعرفة من المسار العرضي التجاوري، إلى المسار العمودي التصاعدي، ومع كل محاولة من أولئك الطاهرين عليهم السلام رفعت عقبة من طريق البشرية، وعلى طول رحلتها التاريخية، عبرت البشرية عقبات ثلاث، مرة بالإجمال، وأخرى بالتفصيل، وتلك العقبات هي أن؛ الهيمنة للكلمة القادمة منه سبحانه على الأنا، هذه العقبة الأولى. والثانية؛ إنّ العلم الحقيقي هو ما تحمله كلمته لا ما تتوهمه الأنا. والثالثة؛ إنّ الحكم والتدبير لكلمته وليس للأنا.

وهذه العقبات هي في واقعها مفاصل القانون الإلهي في إدارة الحياة وتدبير شؤون الكون والخلق، ولقد اجتهد الأنبياء والمرسلون والأوصياء عليهم السلام في بيان تلك الحقيقة، ولقد بينوها بدمائهم الطاهرة الزكية ولم يألوا جهداً في توضيحها للناس حتى يتحقق الوعد الإلهي في قيام دولة والعدل والصدق والرحمة.

قال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٢].

ما ينبغي علينا في هذه المرحلة معرفته ما هو الأصل وما هو الفرع عليه؛ الدين أصل أم فرع، والمجتمع والحياة أصل أم فرع ؟؟

إنّ الإجابة الواضحة على هذا السؤال هي التي ستنقذنا من حالة التخبط المعرفي التي نعيشها اليوم وهي ثمرة تاريخ طويل من الصراع والتيه، إنّ القول بأصالة الدين تجعلنا أمام سؤال آخر عن مصدر أصالته، وهل جعل هذا المصدر للدين قانوناً ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل؟؟؟ وكذلك القول بأصالة الحياة تفرض علينا التساؤل ذاته، وعند الإجابة بأصالة الدين فلا شك ولا ريب سيكون مصدر أصالته هو الغيب وهو الله سبحانه، وهو العزيز الحكيم، فبعزته امتنع عن أن يوصل إليه، وبحكمته استغنى عمن دونه، ومنعته قائمة بما جعله من

١- الأعراف: ١٥٦.
٢- النساء: ١٦٥.

نظام، وحكمته متمثلة بالقانون، وكون منعته قائمة بالنظام هذا مما لا يختلف عليه اثنان، حتى من أولئك الذين يسمون أنفسهم (ملحدين) فالنظام ظاهر لا ينكره إلا جاحد أو جاهل، وهذان الحجة قائمة عليهما، وبوجود المنعة بإقامة النظام يستلزم وجود الحكمة، ومن يقول غير ذلك فقد حكم على أن الله سبحانه أقام نظاما وفوض أمره لخلقه ومن ثم فكل تخريب يقع في ذلك النظام هو تم بموافقة إلهية، وهذا يستلزم نقض المنعة فبتخريب النظام تنتقض المنعة، وهذا ما لا يقول به عاقل ولا يقره صاحب لب !!

ولذا لابد من وجود الحكمة بإقامة نظام منيع، وتلك الحكمة تستلزم وجود قانون حاكم، والقانون الحاكم منذ أول الخلق ولازال هو: الكلمة (النص)، والعلم بوصفه وعاء الكلمة، والرجل الناطق بالعلم الممثل للكلمة.

بمعنى آخر فالقانون هو: الوصية، والعلم، والحاكمية. فالوصية (الكلمة) تسمي رجلاً، والعلم (وعاء الكلمة) يبين رجلاً، والحاكمية (فعل الكلمة) تقيم رجلاً.

ولذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في خبر طويل نأخذ منه موضع الشاهد: (... **ثم إني أخبرك أنّ الدين وأصل الدين هو رجل، وذلك الرجل هو اليقين وهو الإيمان وهو إمام أمته وأهل زمانه، فمن عرفه عرف الله، ومن أنكره أنكر الله ودينه، ومن جهله جهل الله ودينه وحدوده وشرايعه بغير ذلك الإمام كذلك جرى بأن معرفة الرجال دين الله**..) [1].

فكون ذلك الرجل هو اليقين بانطباق نص الوصية عليه بوصف الوصية كتاباً ضامناً من الضلال هذا بحسب ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن هذه الوصية لا يدعيها إلا صاحبها، ولو احتمل أحد إمكان ادعائها من غير صاحبها فقد اتهم رسول الله صلى الله عليه وآله بمصداقيته، وهذا الاتهام لوحده يخرج الذي يقول بذلك – والعياذ بالله – من الدين، وكون ذلك الرجل هو الإيمان استناداً إلى ما يخبر به من علم غيبي لا طاقة لأحد على المجيء بمثله أو رده ونقضه، فضلاً على أن ما يخبر به كاشف عن حقيقة إيمان الناس بالغيب الذي هو الإيمان الحق، وكونه إمام أمته وأهل زمانه استناداً إلى دعوته لحاكمية الله ورفعه لراية البيعة لله ولو اضطره

١- بصائر الدرجات - لمحمد بن الحسن الصفار: ص٥٤٩.

هذا الأمر إلى مواجهة البشرية بأسرها، وانطباق هذه المفاصل القانونية الثلاثة يستحيل أن يتم هكذا اعتباطاً، بل قطعاً أن من يدعيها لا يكون إلا هو صاحبها، ولو كان هناك احتمال ولو عشر المعشار في خرق هذا القانون لبطلت قانونيته ولم يعد قانوناً.

إذن، فالصراع الأصل هو بين الدين الذي يمثل (هو) وبين المجتمع البشري الذي يمثل (أنا)، والمجتمع البشري في كل مسيرته عمل على جعل الدين مؤسسة هامشية من مؤسساته، رتبتها في ذيل القائمة، يُستدعى آخراً، ويُستغنى عنه أولاً، وهذه السلطوية للمجتمع على الدين جاءته من أمور عده منها على سبيل المثال لا الحصر:

١. كون الدين محل ابتلاء واختبار فهو لا يُفرض على المجتمع.
٢. هذا العالم الدنيوي هو بمثابة مزرعة للناس وكل امرئ سيأتي غداً ومعه حصاده.
٣. إقامة الحجة على الخلق في إعطائهم فسحة للاختيار من دون جبر أو قهر، وهذا الاختيار يستلزم نتيجته، والله سبحانه بين كل جهة ونتيجتها، ولذا فاختيار الإنسان يستلزم نتيجة معروفة سلفاً، فلا عذر له في الاختيار الخاطئ.

وأمور أخرى كثيرة البحث ليس بصدد استقصائها، ومن هنا نفهم سر أن تكون دولة الدين هي آخر الدول، لأنها تقوم بعد أن يعلن المجتمع البشري فشله في إقامة مشروع للحكم ينطبق على النظام، فالبشرية كلها لا تختلف أن النظام أمر تكويني، ولا تستطيع العبث به أو تغييره، ولكن الحكم هو أمر تشريعي فيمكنها أن تعبث به بوصفها مكلفة به، فإمكان الإعراض عنه قائم بوصفه تكليفاً لا إكراهاً، ولكن هذا الإعراض نتيجته معلنة من صاحب النظام وهي النار، أما القيام بالتكليف فنتيجته كذلك معروفة وهي الجنة، وكلا النتيجتين قد أعلن عنهما صاحب النظام وصفاً ولكن أخفاهما عن الممتحنين بحقيقتهما، كي يستبين مصداقية قيامهم بتكليفهم.

* * *

في الصراع بين قطبي الكلمة؛ (هو - أنا):

إنّ مما ينبغي بيانه للناس إن من معطيات الدعوة اليمانية المباركة - وكل معطياتها عظيمة - هو أنها أعطت مفاتيح للفكر كي يفتح مغاليق أبواب كان الفكر البشري جل ما يعرف عنها هو ما تثيره تلك الأبواب الموصدة في ذهنه من تصورات يخالها قادرة على وصف العجائب التي خلف الأبواب الموصدة، وبعد أن راحت تنفتح تلك الأبواب ببركة صاحب تلك الدعوة المباركة استبان للناس جميعاً ما معنى قول النبي الكريم عيسى عليه السلام: «في البدء كان الكلمة والكلمة عند الله. وكان الكلمة الله» [١]، وكيف نستطيع أن نفهمها بضمها إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله الوارد عن (جابر بن عبد الله، قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أول شيء خلق الله تعالى ما هو ؟ فقال: **نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير**) [٢].

إنّ نور النبي صلى الله عليه وآله هو الكلمة بقطبيها (هو - أنا) ، و (هو) دالة على قطبي الكنز وهما؛ الثابت والخفي أو الحقيقة والكنه، والثابت (الحقيقة المعبرة عن الوجود) يشير له الحرف (هاء)، والخفي (الكنه المعبر عن معنى الخفاء) يشير له الحرف (واو)، وما لدينا نحن البشر اليوم من هذه المعرفة العظيمة هو اللفظ، أي لفظ (الهاء والواو) وهذا اللفظ يشير إلى شيء من المعنى، أي لا يشير إلى المعنى بكليته أو بتفاصيله، وإنما يشير إلى متعلق بالمعنى وهذا المتعلق نستفيده إما من عالم الوهم المستند إلى المعرفة المتحصلة من مباشرة المادة - التي هي؛ عدم قابل للوجود - بكل تفاصيلها وهذه المعرفة غير حقيقية، أو من عالم الملكوت المستند إلى المعرفة المتحصلة من الصورة - التي هي تشكيل من متنافيات منها ما هو واقع، ومنها ما هو ليس بواقع، والذي يقع منها يستلزم تحقق شرائط وقوعه - وهذه الصور بكل تفاصيلها هي المعنى، وتحصيل هذا المعنى بكله يجعل من صاحبه مستبيناً للمعنى المحكم للأشياء، ومن ثم تكون معرفته حقيقية غير ملتبسة بشيء غير الحقيقة.

وهذا النوع من المعرفة هو المتحصل للمعصومين عليهم السلام كونهم لم يلتفتوا إلى المادة لا من قريب ولا من بعيد، وإنما قصروا نظرهم على الصورة الملكوتية بكل أبعادها وكان لديهم اللفظ

١- يوحنا ١:١.
٢- بحار الأنوار- للعلامة المجلسي: ج١٥ ص٢٤.

ليس إلا وسيلة لمخاطبة الناس على قدر عقولهم – أي على قدر ما يعقلون (يستوعبون) – ولم يكن اللفظ لديهم أكثر من ذلك، ومن هنا يمكننا فهم سر انصرافهم عما انشغلت به الناس وتوهمته علما واصطلحوا عليه اسم (علم العربية)، فالناس اعتمدت اللفظ سبيلاً للمعرفة ولذلك أولته اهتماماً لا ثمرة منه، بل والغريب أنها عدت أن المعرفة مقصورة على طريقه، وهذا الفهم هو من معطيات الوهم، أما الحقيقة هي أن المعرفة طريقها المعنى أو الصورة الملكوتية بكل تفاصيلها لأنها هي حامل المعرفة، أما اللفظ فهو وعاء قابل للتلقي من جهة الملكوت فيقع فيه شيء من الصورة دال عليها، أو من جهة الوهم والعوالم السفلية فيقع فيه خيال شيء متوهم مشتبه بالصورة وغير متشابه معها.

ولذا فإن التفريق بالنسبة لعامة الناس بين تلك الحالين يعد صعباً إن لم يكن مستحيلاً إلا إذا تمسكوا بمن قصروا نظرهم على الملكوت، وعرفوا الصورة بكل تفاصيلها، والتمسك يعني التعلم والأخذ عنهم حصراً مع العمل على وفق ذلك المأخوذ، ومن هنا نفهم الضرورة لوجود المعلم المعصوم عليه السلام فهذا المعلم وضع الوهم في ساحة عمله التي من أجلها جعل، حيث أن ساحة الوهم هي أن يكون تابعاً لا متبوعاً ومعتصماً لا معصوماً ولذا عليه أن يقصر نظره على الملكوت، فإغلاق باب الوهم بوجه العوالم السفلية الظلمانية يعني تخطي الحجاب الذي يحجب الملكوت، واكتمال الإغلاق يعني أن لا حضور في ساحة من انغلق لديه باب الوهم لغير الملكوت، ومن ثم فهو يرى الصورة كما هي، وهذا ما عليه حال المعصومين عليهم السلام، فهم في هذا العالم مجاورون له بالبدن حسب أما أرواحهم فهي معلقة بساحة القدس.

وبناء على هذا الفهم المقدم يتبين للقارئ معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام – ما معناه –: (**أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومها**) [1]، لأنه (صلوات الله عليه) قصر نظره على ذاك العالم القدسي، ولم يباشر هذا العالم بنظره أبداً حيث يقول عليه السلام للدنيا: (**هيهات غري غيري. لا حاجة لي فيك. قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها**)[2].

١- نهج البلاغة : ج٢ ص١٣٠.
٢- نهج البلاغة: ج٤ ص١٧.

إذن، واستناداً إلى نهج المعلم الإلهي ينبغي للناس كي تبدأ مسيرة المعرفة الحق أن تباشر بإجراءات غلق نوافذ تلقي الوهم من العوالم السفلية الظلمانية والعمل على إقفالها إقفالاً محكماً، لأنه بوجود أصغر نافذة للوهم على تلك العوالم يمكن للمعرفة المتلقاة أن تكون غير حقيقية، ومن ثم كل ما ينبني عليها فهو غير حقيقي، ومن هنا كان لما بينه يماني آل محمد ﷺ عن حقيقة اللفظ وكونه هو شيء من المعنى – أي شيء من الصورة – يتلقاها الوهم من العوالم السفلية الظلمانية ومن ثم فذلك الشيء هو زيف، أو يكون تلقي الوهم من عالم الملكوت والحقائق ويكون ذلك الشيء متشابهاً وغير بين إلا أن يتم بيانه من المعصوم المعلم ولذلك كان وجود المعصوم ضرورة، والإعراض عنه يجعل البشرية تحصد ثمرة هذا الإعراض فساداً واختلافاً وتنازعاً، حيث يقول يماني آل محمد ﷺ: [ثم إنّ الناس لا يعرفون من القرآن إلا الألفاظ، وهي قشور وشيء من المعنى يحصلونه؛ إما من الوهم والعوالم السفلية، فهو باطل. وإما من الملكوت وحقائق الأشياء فيه، وهي من لوح المحو والإثبات] [1].

إنّ إغلاق نوافذ التلقي من الوهم – أي ساحة الظلمة – هو العمل الذي يقوم به جميع الخلق بما فيهم المعصومون عليهم السلام، ولكن ما يميز المعصومين عن باقي الناس هو أنهم منذ أن يميزوا يبدؤون رحلة الإغلاق لذا فهم أكثر الناس إخلاصاً بغلق النوافذ المؤدية إلى ساحة الظلمة، وبدؤهم يكون اختياراً وليس تكليفاً، بينما عامة الناس لا يبدؤون تلك الرحلة إلا عندما يبلغون سن التكليف وهذا للأسف تضييع للفرصة التي كانت متاحة للمعرفة التي من خلالها تميز المعصومون عليهم السلام عن باقي الخلق، وكذلك من هذه المرحلة يقع التمايز بين الخلق فمنهم من يباشر فعلاً عند بلوغه ذلك السن، ومنهم من يتأخر بحسب انتباهه إلى ضرورة المعرفة الحق، وليس عموم المعرفة، لأن من المعرفة ما هو زخرف مستند إلى عاملي؛ الإثارة والإدهاش، وهذه المعرفة تعمل على غلق نوافذ الملكوت، أي بالعكس تماما من فعل من يطلب المعرفة الحق، وهذا ما يميز المعرفة الإلهية عن المعرفة البشرية.

فمنهج المعرفة الإلهية يبدأ مراحل عمله الأولى:

١- المتشابهات - السيد أحمد الحسن عليه السلام: ج١ سؤال رقم ١٩.

أولاً: بتسليط الضوء على ساحة الوهم وكشف حدودها.

ثانياً: توضيح ماهية ما يتلقى منها وغايته التي يريد تحقيقها.

ثالثاً: بيان خطورة ذلك المتلقى وما يقوم به من تخريب للفطرة.

رابعاً: بيان الكيفية التي يتم بها إغلاق النوافذ المطلة على ذلك العالم.

خامساً: المباشرة بغلق تلك النوافذ غلقاً محكما ، ليُتاح لنوافذ عالم الملكوت العمل بفعالية في التلقي.

ذاك أنّ الإنسان – بحسب ما أفهم من دلالة (سواها) – عند تسويته فتح الله سبحانه نوافذه العشرة على عالمي الملك (المادة) والملكوت (الروح).

قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[1].

وتلك النوافذ العشرة هي درجات الإيمان التي ينبغي أن يستكملها المرء في كل عالم من العوالم كي يبلغ العالم الذي فوقه، فالعمل يبدأ بغلق نوافذ الفجور الخمسة المقابلة لنوافذ التقوى الخمسة، ليكون التلقي من نوافذ التقوى على وفق ما أراد الله سبحانه، فغلق نافذة الشهوات يتيح لنافذة الزهد العمل، وغلق نافذة الشح يتيح لنافذة الإيثار العمل، وغلق نافذة الكبر يتيح لنافذة التواضع العمل، وغلق نافذة الرياء يتيح لنافذة الإيمان العمل، وغلق نافذة العجب يتيح لنافذة الطاعة العمل، وباستكمال المرء تلك الدرجات يكون قد بلغ مرحلة التسليم.

قال تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[2].

إنّ في غلق نوافذ الفجور هو تعطيل لفاعلية (الأنا) في النفس الإنسانية ومن ثم تترك المجال واسعاً للتلقي من نوافذ التقوى وتحفيز للنفس في أن تكون وعاء طاهراً يستقر فيه الـ (هو)

١- الشمس: ٧ – ١٠.
٢- البقرة: ١١٢.

ومن ثم تحفيز فاعلية الـ (هو) لتعمل على شد علائق النفس بالعالم الأخروي، والاستقرار يعني الارتباط الدائم والمستمر بالحقيقة والكنه، وهذا الارتباط الدائم والمستمر سيجعل من العبد عارفاً بحقيقته ويكون مصداقاً لقول الطاهرين عليهم السلام: (**من عرف نفسه فقد عرف ربه**)[١]، ومعرفة النفس هو بجعلها ساحة للنور الإلهي كما أرادها خالقها سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٢] حيث تتحقق الإرادة الإلهية من الخلق.

* * *

١- شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين - لابن ميثم البحراني: ص٥٧.
٢- الذاريات: ٥٦.

لسان المعصوم هو ميزان اللغة:

إنّ مما يجعل لسان المنصب من الله سبحانه هو الميزان الذي به تستبين اللغة كون المنصب ناظر إلى حقائق الأشياء، ووظيفة اللغة هو بيان معاني الأشياء وحقائقها، وهنا كان البيان الأول والامتحان الأول حيث قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، فكان هذا الامتحان كاشف عن الميزان الذي به ومن خلاله تستبين حقائق الأشياء، ومن دونه تضيع حقائق الأشياء ويشيع القول بالهوى وشيوع القول بالهوى دال على الاستغلاق وغياب العلم والحكمة، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[2]، والخطاب هنا موجه إلى الأمة التي نزل فيها القرآن، وثابت أن هذه الأمة ظاهر لسانها العربية، فكيف يقول لهم الكتاب: إنّ اللسان الذي تلحدون إليه أعجمي، ومعلوم أنّ العجمة تعني الاستغلاق بمعنى أن اللسان الذي تلحدون إليه لسان مستغلق وهو لسان نقيض للسان العربي الذي نطق بالقرآن، واللسان الناطق في زمن التنزيل بالقرآن هو لسان محمد صلى الله عليه وآله ؟؟

فبيان ذلك يتجلى في كون محمد صلى الله عليه وآله ناظر لحقائق الأشياء في العوالم الواقعة تحت نظر الله سبحانه وواصف لما يرى وصفاً حقيقياً صادقاً إلى هذا العالم الذي لم ينظر له ربه سبحانه منذ خلقه، بمعنى أن العالم المنقطع عن المعرفة هو هذا العالم الدنيوي ولولا وجود الآصرة التي تربطه بالعوالم العليا وهو خليفة الله المنصب من الله سبحانه الذي رُخِّص له في النظر في تلك العوالم والإخبار عنها لانقطع هذا العالم وبانقطاعه تتعطل الغاية من وجوده وخلقه، وهذا خلاف ما أراده الله سبحانه حيث خلق هذا العالم ليكون شاهداً له معرفاً به كما هو الحال في العوالم العلوية، وإرادة الله سبحانه لابد كائنة.

إنّ المغالطة التي وقع بها البشر هي توهمهم أن الألفاظ هي ناقل المعنى، وليس رمزاً دالاً عليه، وكون اللفظ وعاء ناقلاً للمعنى يستبطن عدم الحاجة لمن يبين المعنى أي لا يحتاج بيان

١- البقرة: ٣١.
٢- النحل: ١٠٣.

المعنى من اللفظ غير النظر في اللفظ وليس خارجه وهذا الأمر قد أثبت خطأه على طول المسيرة البشرية، ولكن العجيب والغريب أن البشرية مصرة على المضي بهذا الفهم الذي زادها تيها على تيه، فاللفظ بواقعه منتج لساني وليس معنوي، أي بين المعنى واللفظ هناك حد فاصل وهو اللسان ولذا لابد من النظر في اللسان الناقل للمعنى، وما اللفظ سوى إشارة دالة على اللسان الحامل للمعنى، وبذلك يكون حامل المعنى هو اللسان وليس اللفظ، فاللفظ لا يعدو كونه دالة على اللسان الناطق، والمطلوب من اللغة أن تكون معرفة بمعاني الأشياء، ومن خلال معاني الأشياء يمكن للعارف النظر إلى حقائقها، ومن ثم الارتقاء للنظر في تلك الحقائق، وهذا كله لا يكون إلا بالرجوع إلى اللسان الحامل للمعنى، فالمعنى هو بداية السبيل لبلوغ مرتبة المعرفة الحقيقية وهي مرتبة إعلان العجز عن المعرفة وذلك من خلال الوصول إلى مقام النظر في حقائق الأشياء.

إذن، فالألفاظ هي ليست حاملاً للمعنى، نعم يمكنها أن تكون حاملاً لشيء من المعنى ولكن هذا الحمل هو في حقيقته ليكون دالاً على اللسان الحامل للمعنى وحقائقه، وليس ليكون باعثاً على النظر في اللفظ ذاته ومن ثم الاستغناء عن اللسان الناطق به واستبعاده عن معادلة المعرفة. وعلى الرغم من أن ما حصل في واقع الحياة البشرية هو هذا في كل زمان وأمة إلا أن هذا الذي حصل دفعت الأمم حياله أثمان باهظة من الويلات والعذابات والتخلف والجهل، ومن ثم العاقبة السيئة.

لقد حان الوقت لإدراك ما فات وإنقاذ ما بقي والتصديق بقول الله سبحانه أن غاية الخلق هي معرفته سبحانه ولا يعرف سبحانه إلا من خلال رسله الذين جعلهم حملة لعلمه المعرف به وجعلهم لسان علمه الناطق، وجعل الألفاظ دالة عليهم حصراً، ولا سبيل لمعرفة معاني الألفاظ إلا بهم مهما شرق الناس وغربوا فكل تشريق وتغريب إنما يزيد في تيه الناس وابتعادهم عن الغاية وهي تحصيل المعرفة، ومن ثم الغرق في جحيم الجهل الذي ينبغي أن يكونوا فارين منه هاربين إلى جنان المعرفة، فليس من العقل أن يسلم المخلوق نفسه لجحيم ينبغي أن يكون هارباً منه، ويترك جنة هو مخلوق إليها، لأنها تحقق الغاية من خلقه ورضا من خلقه سبحانه وتعالى.

الخلاصة:

في نهج الاعتباط كان الفهم اللغوي منحصراً في إيجاد الآصرة التي تربط الدال بالمدلول، ولما لم يجد هذا المنهج السبيل إلى ذلك أحال تلك الآصرة إلى منطقة فراغ يعبث بها الفهم الفردي للمتكلم ومن ثم أعطى لتلك الساحة صفة الاعتباط، وغادر ذلك المشكل ليرتب على الجهل به نتائج عرضية انمازت بالكمية ولم تغادر مكانها نوعياً بل بقي الفهم اللغوي على مستوى التقدم يراوح في مكانه ولكنه على مستوى التكثر الكمي أنتج إنتاجاً غزيراً لا رابط ينتظمه سوى الرابط الموهوم وهو آصرة الاعتباط، بمعنى أن اللغة في تلك الساحة الاعتباطية عانت من سلطوية آراء الناطقين، ولاشك في أن تلك الآراء مختلفة وفي كثير من الأحيان متناقضة غاية التناقض، ولكن غاب انكشاف هذا التناقض لأن هذه الساحة اعتمدت سياسة الإنتاج العرضي التجاوري، وهذا الانتاج لا يمانع تماما في تجاور المتناقضين لأن تجاورهما لا يترتب عليه شيء يفضح خلل المنهج وتهافته.

وبعد زمن من سلطة نهج الاعتباط جاء أحد الباحثين وهو عالم سبيط النيلي ليفضح تهافت هذا المنهج، وتناقض منظومته، وأنه منهج عقر الفهم اللغوي وحبسه في دائرة التكثر العرضي الكمي، وعطل دائرة الإنتاج النوعي التطوري، وقد نجح النيلي في سياسة الانتقاد التي اتبعها، حيث من خلال تلك السياسة كشف عن أسباب عقم الخطاب اللغوي طوال فترة تسلط ذلك النهج، ولكن النيلي وقع في ذات المأزق الذي وقع به منهج الاعتباط، حيث ادعى قانوناً حاكماً للفهم اللغوي مستنداً إلى ما تمتلكه تلك الرموز (الأصوات والحروف) من قيم فيزياوية – بحسب ما يزعم – قادرة على الإفصاح عن قانون تركيب يحكمها ويؤلف بينها، وهذا القانون وضعه النيلي استناداً إلى ما بدا له من حال تلك الرموز، ولكنه غفل إلى أن تلك الرموز وما تمتلك من طاقة فيزياوية هي في واقعها لا تعدو ساحة أن تكون نظام من الشفرة يحتاج إلى من يترجمه.

ولذلك من أغرب ما في عمل النيلي هو غفلته التامة عن اللسان ودوره في النظام اللغوي، بل أن أهمية اللسان التفت لها حتى نهج الاعتباط لأنه وجد أن مصطلح اللغة مصطلح

وضعي بينما المصطلح الشرعي الشائع هو مصطلح اللسان، فراح يستخدم مصطلح اللسان لا بمقامه الذي أراده له التشريع، بل بما استعمله الوضع بديلا لمصطلح اللغة، ولكن المنهج استمر على آلياته التي يعمل بها قبل الالتفات إلى مصطلح اللسان، أما في نظرية النيلي فقد استبعد اللسان تماماً من معادلة نظريته القصدية، وكثف نظره على القيم الفيزياوية المتفاوتة للرموز الصوتية، وراح ينتقي لما يوافق نظرته تلك كل ما من شأنه إقناع القارئ والباحث بصواب منهجه، وهو بهذا الفعل لا يعدو أن شارك أصحاب الاعتباط بذات النهج.

فمسألة القيم الفيزياوية للأصوات ربما لا يكون النيلي هو أول من التفت إليها بل سبقه أصحاب نهج الاعتباط في ذلك، ولكن الباحث النيلي ذهب بعيداً في الزعم أن تلك القيم المتفاوته تفرض نظاماً للاقتران والتركيب والتأليف، ومن ثم فهي – أي تلك الرموز الصوتية – من يحدد القصد من العبارة، ومن النص، وأن قصديتها كامنة فيها !! ولكن من يستطيع استنباط تلك القصدية الكامنة بالرموز ؟؟؟ هل تستطيع تلك الرموز – مثلاً – من خلال تطبيق معادلات معينة أن تفصح عن قصديتها ؟؟ هل هناك سبيل يتفق عليه كل من يقرأ ويبحث في نظرية النيلي لمعرفة قصدية العبارة المؤلفة أو النص المؤلف ؟؟!!

لا شك في أن ما تصوره النيلي بقي حبيس تصوره ولذلك ما توهمه حلا استحال معضلة جديدة، بدليل ما فعله لم يعدو كونه انتقاداً لنظرية الاعتباط وبيانا لتهافت ذلك النهج وكان موفقاً في ذلك توفيقاً كبيراً، ولكنه ما إن شرع في وضع البديل حتى وقع في المأزق ذاته، وهو زعمه أن النظام أمر ذاتي في الرموز الصوتية، ولذلك كل عبارة وكل نص هو يستبطن قصديته في ذاته، وقادر بذاته على الإفصاح عن تلك القصدية، متوهماً الاستناد إلى ما أسماه أصح نص في تاريخ البشرية وهو القرآن الكريم !!! وقد فات النيلي أن لو كان ما توهمه صحيحا لانتفى وجود الحجة الناطق (القرآن الناطق أي اللسان الناطق) وللزم أن يكون ذلك معروفا منذ زمن رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، ولما وقع المسلمون بالاختلاف والتناحر والتشتت.

إنّ الزعم بأن القرآن (النص) يستبطن قصديته بذات رموزه، يعني فيما يعني أنّ القرآن (النص) مستغن عن الناطق به، وهذا كذلك يعني أنّ وصية رسول الله ﷺ: (**إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**) لم تكن في محلها (استغفر الله من هذا القول)، ولعلي لا أبالغ إذا ما قلت أن ما توهمه النيلي في نظريته كان قد أشار إليه القائل في رزية يوم الخميس: (حسبنا كتاب الله)، ذلك أن الكتاب هو منظومة مشفرة هذا لا جدال فيه، فيكاد جميع المسلمين يعرفون ذلك، ولكن الناس اختلفت، أو إذا ما شئنا الواقع اختارت الاختلاف حول: مَنْ الناطق الشرعي بالكتاب، ومن المترجم له ؟؟ مع أن النصوص في الكتاب واضحة تكشف عن قوم معينين من الله هم من أسندت لهم مهمة ترجمة الكتاب للعباد بعد رسول الله ﷺ.

ومعلوم أنّ ما أجمله الكتاب أسندت مهمة تفصيله وبيانه لرسول الله ﷺ مثل بيانه لتفاصيل الصلاة والزكاة والصوم والحج، فهذه الأركان ذكرها الكتاب إجمالاً، وكانت مهمة الرسول ﷺ بيانها، وكذلك عين الكتاب مترجميه والناطقين به والقائمين عليه إجمالاً وكلف رسول الله ﷺ بمهمة البيان.

قال تعالى: ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[2].

ولربما يقول قائل أمره أن يبلغ الدين !! فيأتي الاستغراب: إذن ماذا كان يفعل رسول الله ﷺ طوال فترة ثلاث وعشرين سنة تقريباً، وهذه الآية هي من الآيات الأخيرة نزولاً؟؟؟ ولماذا بعدما نزلت تلك الآية جمع رسول الله ﷺ الناس في يوم قائظ وهو في طريق عودته من حجة الوداع عند غدير خم ؟؟ وماذا قال لهم في غدير خم ؟؟

١- النحل: ٤٤.
٢- المائدة: ٦٧.

ولعل من النافع للقارئ الكريم أن أضع بين يديه نص وصية رسول الله ﷺ التي أملاها ليلة وفاته، وهذه الوصية أحكمت وصية الرسول ﷺ الإجمالية بالتمسك بعترته أهل بيته ﷺ بنص تفصيلي ذكر فيه الحجج خلفاء الله من بعده لكي لا يكون هناك مجال للمتخرصين والمتقولين بالباطل:

أخبرنا جماعة (هؤلاء الجماعة ذكرهم الشيخ الطوسي في مواضع أخرى وما ذكرته عن أبي عبد الله الحسين بن سفيان البزوفري فقد أخبرني به أحمد أبن عبدون والحسين بن عبيد الله (الغضائري) عنه) [1]، عن أبي عبد الله الحسين بن علي بن سفيان البزوفري، عن علي بن سنان الموصلي العدل، عن علي بن الحسين، عن أحمد بن محمد بن الخليل، عن جعفر بن أحمد المصري، عن عمه الحسن بن علي، عن أبيه، عن أبي عبد الله جعفر بن محمد، عن أبيه الباقر، عن أبيه ذي الثفنات سيد العابدين، عن أبيه الحسين الزكي الشهيد، عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، قال:

قال رسول الله ﷺ – في الليلة التي كانت فيها وفاته – لعلي عليه السلام: يا أبا الحسن، أحضر صحيفة ودواة. فأملا رسول الله ﷺ وصيته حتى انتهى إلى هذا الموضع، فقال: يا علي، إنه سيكون بعدي اثنا عشر إماماً ومن بعدهم إثنا عشر مهدياً، فأنت يا علي أول الاثني عشر إماماً سماك الله تعالى في سمائه: علياً المرتضى، وأمير المؤمنين، والصديق الأكبر، والفاروق الأعظم، والمأمون، والمهدي، فلا تصح هذه الأسماء لأحد غيرك.

يا علي، أنت وصيي على أهل بيتي حيهم وميتهم، وعلى نسائي: فمن ثبتها لقيتني غداً، ومن طلقتها فأنا برئ منها، لم ترني ولم أرها في عرصة القيامة، وأنت خليفتي على أمتي من بعدي، فإذا حضرتك الوفاة فسلمها إلى ابني الحسن البر الوصول، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابني الحسين الشهيد الزكي المقتول، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه سيد العابدين ذي الثفنات علي، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى

١- خاتمة الوسائل: ص٣٠.

ابنه محمد الباقر، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه جعفر الصادق، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه موسى الكاظم، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه علي الرضا، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد الثقة التقي، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه علي الناصح، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه الحسن الفاضل، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد المستحفظ من آل محمد عليهم السلام. فذلك اثنا عشر إماماً.

ثم يكون من بعده اثنا عشر مهدياً، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه أول المقربين (وفي مصادر أول المهديين) **له ثلاثة أسامي: اسم كاسمي واسم أبي وهو عبد الله وأحمد، والاسم الثالث: المهدي، هو أول المؤمنين)** [1].

والحمد لله وحده وحده وحده.

١- كتاب الغيبة - للشيخ الطوسي: ص١٥٠.

الفهرس

مقدمة ٥

المدخل ٨

ماذا فعل النيلي ؟ ! ١٤

خلل القصدية ٢١

تحليل المنظومة اللغوية ٢٣

قراءة لما بعد قصدية النيلي ٣٠

في بيان الكلمة ٤١

القرآن يكشف عن قانون الدلالة ٤٧

في القانون اللغوي ٦٢

في الصراع بين قطبي الكلمة؛ (هو – أنا) ٦٩

لسان المعصوم هو ميزان اللغة ٧٤

الخلاصة ٧٦

الفهرس ٨١

والحمد لله رب العالمين